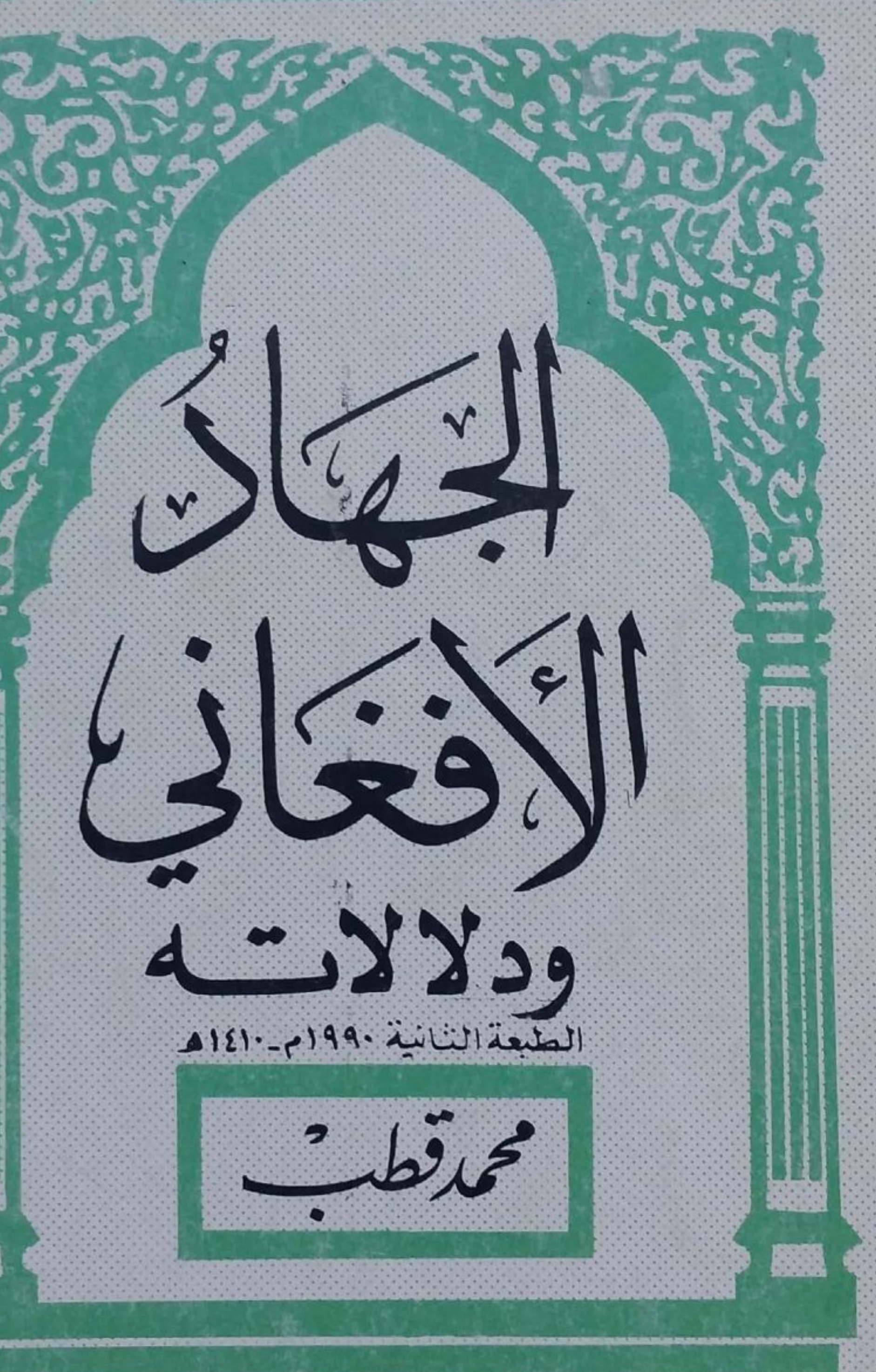


الجهادُ الأفغاني ودلالاته

الطبعة الثانية ١٩٩٠م - ١٤١٠هـ

محمد قطب

مؤسسة المدينة للصحافة

ص.ب : ٨٠٧ جده ٢١٤٢١ ت : ٦٧١٢١٠٠

الجهاد الأفغاني

ودلالاته

الجهاد الأفغاني

ودلالاته

محمد قطب

الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

صدق الله العظيم



مقدمة

لقد كان صمود الأمة الأفغانية عشرة أعوام أمام أكبر غزوٍ وحشيّ في التاريخ، حدثاً تاريخيّا ضخما ولاشكّ، ثم كان اضطرار الجيوش الروسية للانسحاب أمام صمود الجهاد الأفغانيّ حدثا تاريخيا أضخم من سابقه. ومع ذلك فقد مرّ كلاهما في صحافتنا وإعلامنا كأنهما من الأحداث اليومية التي لاتثير الانتباه! كأننا نعيش في عالم آخر، أو كأن أحداث أفغانستان هي في ذاتها أنباء عالم آخر بعيد!

ولقد أبرز الجهاد الأفغاني مجموعة من الحقائق الضخمة.. أو قُلْ جَسَّدها تجسيدا حتى أصبحت أموراً ملموسة بعد أن كانت مُجرّد أفكار، أو خيالات باهتة لاتَثْبُت للنظر!

الأمر الأول الذي أبرزه الجهاد الأفغاني هو حقيقة «الجهاد»، وأهميته البالغة في حياة الأمم، والفارق الهائل بين الأمة التي تجاهد والأمة التي تَرضى بالذل. الأمة التي تواجه، والأمة التي تستنيم. الأمة التي تتحرك الحركة الإيجابية، والأمة التي تعيش في السلبيات.. كما أبرز الجهاد الأفغاني لماذا أَوْلى الإسلام اهتمامه البالغ بأمر الجهاد، وربطه بالعقيدة، وعظّمه وكرّمه، ودعا إليه بكل الوسائل، بينما حرص الاستعمار على قتل روح الجهاد، وتربية أجيال من المسلمين

بعيدة عن هذه الروح، منكرة لها، مُنْسَلِخَةً منها..

الأمر الثاني هو كسر حاجز الرهبة من الوحوش الضارية التي تُسمِّي نفسها «الدول العظمىٰ !» أو «القوىٰ العظمىٰ»، أو ما شاء لها غرورها أن تُسمِّي به نفسها من الألقاب والصفات..

والأمر الثالث هو دلالة هذا الحدث الضخم بالنسبة للحاضر وبالنسبة للمستقبل.. سواء في داخل العالم الإسلامي أو على الصعيد الدولي.

ومن هذه الزوايا الثلاث كانت رؤيتي للجهاد الأفغاني منذ بدايته حتى وصل إلى ذروته التي وصل إليها، وبهذه الرؤية كنت أتعايش مع ذلك الجهاد، أنفعل به، وأنفعل معه، وإن قصّرتْ بي إمكاناتي عن المُشارَكة فيه بنفسي. أرجو الله أن يغفر لي تقصيري، وأن يتقبل مني جهد المُقِلّ.

وإني أكتبُ هذا ولمّا تَنْتَه المعركة بعد، وماندري على أيّ وضع تنتهي.

ولكني أقول: إنه أياً كانت نتائج المعركة، والسياسية خاصة، فإن ماتم حتى اليوم يعتبر آية من آيات الله، تستحق منّا أن نوليها التفاتنا، وأن نعني بتسجيلها، وأن نبرز دلالاتها، ونستخرج منها عِبْرتَها.

ندعو الله أن يمنح المجاهدين نصره الذي وعد، وأن يوفق العاملين في سبيله إلى مايحبه ويرضاه.

١٨/١٢/١٤٠٩هـ

٢١/ ٧/١٩٨٩م

محمد قطب

الإسلام والجهاد

عناية الإسلام بالجهاد أمرٌ أوْضَحُ من أن يُشار إليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2]

«ألا أُخْبِرُكَ بِرأسِ الأمْرِ وعَمُودِهِ وذِرْوةِ سَنَامِهِ؟ رَأْسُ الأمْر الإسلام وعمودُه الصلاة وذِرْوةُ سَنَامِهِ الجهاد»[3].

ولكن شأن الجهاد ظل يتضاءل في حِسّ المسلمين في القرون الأخيرة، والقرن الأخير خاصة، حتى صارت الدعوة إليه تُقابَل بالفتور الشديد إن لم تقابَل بالإنكار! وحلّت مَحَلّها دعوات أخرى،

---

(١) سورة الصف [١٠ ـ ١٢].

(٢) سورة الحج [٧٨].

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وطنيــة وقـوميــة، وسيــاسية واجتماعية، صارت تستوعب مشاعر الشعوب وتُلْهب حماستها، وتحتل جانبا من نشاطها ـ أو من فُضُول نشاطها في الواقع[١] ـ وتَصْرِفُها عن «الجهاد» بمعناه الإسلامي الأصيل، وإن وصلت إلى حد القتال في بعض الأحيان.

بل تضــاءل «مفهوم» الجهاد نفسه ـ بعد الانصراف الواقعي عنه ـ حتى انحصر في حدود ضيقة سُمِّيت «الجهاد الدفاعيّ»، واسْتُبْـدِل بمبدأ الجهاد ماسُمِّى «الوسائل الدبلوماسية» و«عرض الأمر على المحافل الدولية» و«إقناع الرأي العام العالمي».. وما أشبه ذلك من العبارات التى ابتدعت لتخدير المسلمين ـ وغيرهم بالطبع[٢] ـ عن العمل الجاد لاسترداد حقوقهم المسلوبة وكيانهم المفقود..

* * *

الجهاد ـ بمعناه الإسلامي ـ جزء أصيل من بناء الإسلام، ومن كيان الأمة الإسلامية.

ولايتبين لنا ذلك واضحا حتى نتبين المهمة التى «أُخْرِجَتْ» لها الأمّة[٣].

---

(١) منذ نسيت هذه الأمة الجهاد في سبيل الله صار معظم همّها مُوجَّها للقِيَم المادية، سواء كانت لقمة الخبز بالنسبة للفقراء، أو وسائل الترف والمتعة بالنسبة للأغنياء. وصارت الدعوات المختلفة تحتل جانبا هامشيا من حياتها.

(٢) لاشك أن غير المسلمين دخل أيضا في هذه الدّوّامة، ولكن المقصود الأول كان المسلمين، لأن وطأة الاستعمار كانت مركزة عليهم .

(٣) يلاحظ بناء الفعل للمجهول في الآية الكريمة ﴿كنتم خير أمة أُخْرِجَت للناس﴾ إشارة إلى فضل الله في إخراجها.

لقد أُخرجَت هذه الأمّة لِمُهمّة لم تُخْرَج لها أمّة من قبل، وكُلِّفت تكاليف لم تُكَلَّفْها أمّة من قبل. فقد كُلِّفت الأمم السابقة كلها أن تؤمن بالله، وتخلص له العبادة في ذات نفسها فحسب:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[1].

أما هذه الأُمّة فقد كان لها شأن آخر.

فأما عبادة الله وحده، والاستقامة على ذلك، وإخلاص العبادة لله، الذي كُلِّفت به الأمم السابقة كلها، فقد كُلِّفت به هذه الأمة أيضا دون شك، لأنه الأساس الذي لايقوم بدونه شيء، ولايظل شيء بدونه موصولا بالله، مستحقا لرعايته، حائزا لرضاه.

ولكنها بعد أن أقيمَتْ على هذا الأساس المتين من التوحيد الخالص، وإخلاص العبادة لله، كُلِّفت تكاليفَها الخاصة، وأُدْخِلَت هذه التكاليف ـ بأمر الله ـ في مقتضيات لا إله إلا الله، فصارت قاعدة لا إله إلا الله بالنسبة لهذه الأُمة ـ بمقتضايها المتعددة ـ أوسع قاعدة عرفتها أُمة في التاريخ، ودخل هذا الاعتبار ـ اعتبار اتساع قاعدة لا إله إلا الله ـ في تقدير «الخيرية» التي فُضِّلت بها هذه الأُمة على كل الأمم السابقة.

---

(١) سورة البينة [٥].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[1].

كُلّفت هذه الأمة ـ فوق الأساس الإيماني والتعبدي الذي كلفت به الأمم السابقة[2] ـ الدعوة إلى هذا الدين والشهادة على كل البشرية :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[4].

هذه الدعوة الموجهة إلى البشرية كافة لم تُكَلّف بها أُمة من قَبْل. فقد كان كل رسول يُرسَل إلى قومه خاصة، وتظل دعوته محصورة في قومه، وفي المدىٰ الزمني الذي يقدره الله سبحانه وتعالى حتى يُرسِل رسولا بعده.

ولم تكن أمة عيسى عليه السلام استثناء من هذه القاعدة، فالقرآن يقرر أن عيسى عليه السلام قد بُعِثَ إلى

---

(١) سورة آل عمران [١١٠].

(٢) والذي يشمل فيما يشمل تحكيم شريعة الله.

(٣) سورة آل عمران [١٠٤].

(٤) سورة البقرة [١٤٣].

بني إسرائيل خاصة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (١).

﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾ (٢).

وتقـرر الأناجيل ذلك أيضا ـ على لسان عيسى ابن مريم : «بُعِثْتُ إلى خِرافِ بني إسرائيل الضّالّة».

أمـا تحوّل الدعوة إلى دعوة «عالمية» على يد بُولس ـ الذي كان اسمه في اليهودية «شاول» ـ فلم تكن دعوة لدين الله في الحقيقـة، إنما كانت دعوة وثنيّة مُحرّفة، حوّل بها شاول دين التوحيد المُنزّل من عند الله إلى دين وثني، وبثه في أرجاء الأرض، فلا الدين هو الدين، ولا العالمية قصد بها تعبيد البشر لله وحده كما أمر الله.

إنما كانت الأُمة التي كُلِّفت أن تدعو البشرية كلها إلى دين الله الحق، وتسعى لتعبيـد البشر لله وحده، هي هذه الأُمة، بتكليف رباني :

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ .

وهذا بعض المعنى الذي حمله رِبْعِيُّ بن عامر إلى رُسْتُم قائد الفرس حين سأله الأخير: ما الذى أتى بكم إلى بلادنا ؟

---

(١) سورة آل عمران [٤٩].

(٢) سورة الصف [٦].

فقال: الله ابتعثنا لِنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله[1].

كذلك كُلِّفت هذه الأُمة أن تشهد على البشرية..

وهذه الشهادة تقع في يوم القيامة. ولكنها لاتتحقق حتى تقوم هذه الأُمة بالدعوة إلى دين الله في الحياة الدنيا. فإن مؤدي الشهادة أن الأُمة قد قامت بواجبها في التبليغ، فعرّفت الناس بربهم، وبواجبهم نحوه، وهو عبادته وحده دون شريك، والقيام بمقتضيات هذه العبادة من عقيدة وشعيرة، وشريعة وأخلاقيات.. إلخ، ولن تكون قد قامت بواجبها في التبليغ بمجرد أن تُبلّغهم شفاهاً أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، بل بأن «تُعلِّمهم» معنى هذه الشهادة ومقتضياتها.. ولن يكون التعليم ذا ثمرة حقيقية حتى تكون معه «القدوة» العملية المُصدِّقة للقول النظري.. وتلك هي المُهمّة الحقيقية لهذه الأمة، أن تَصْدُق أولا في تحقيق دين الله في ذات نفسها، ثم تدعو الناس بالدرس العملي.. وبذلك تتحقق شهادتها على البشرية يوم القيامة، فتقول بين يدي الله يوم يقوم الأشهادُ: بلّغنا دعوتك يارب، وعَلَّمْنا الناس - بالقدوة العملية - كيف تكون العبادة الخالصة لك، فمن استجاب للدعوة فقد حَقّتْ له جنتك، ومن أعرض فهو بين يديك تقضي فيه بما تشاء:

---

(١) سيأتى الحديث عن بقية المعنى الذي تكلم به رِبْعِيّ بن عامر فيما بعد.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وإذا أنعمنا النظر في كلا التكليفين: الدعوة لكل البشرية، والشهادة عليها يوم القيامة، فسنجد أن هذه هي المهمة التي بُعِثَ من أجلها الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٢).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٣).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾(٥)

أي أن الأُمّة المُسلِمة قد حُمِّلَتْ ذات الرسالة التي أُرْسِلَ بها رسولها صلى الله عليه وسلم، وكلفت ذات التكليف. والحكمة في ذلك واضحة، فحينما كانت الرسل تَتْرىٰ كان كل رسول يحمل الرسالة إلى القوم الذين أرسل إليهم، ثم يأتي من بعده رسول آخر بذات الرسالة. حتى إذا بُعِثَ

(١) سورة المائدة [١١٨].
(٢) سورة الأعراف [١٥٨].
(٣) سورة سبأ [٢٨].
(٤) سورة الأحزاب [٤٥].
(٥) سورة النساء [٤١].

خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ـ الذي لن يُبْعَثَ بعده نبي ـ لزم في علم الله أن يكون هناك من يحمل رسالته من بعده، فكلَّف الله أمته بذلك الأمر، وكان هذا تكريما لها بين الأمم، كما كان كذلك من مقومات الخيرية التي فضلها الله بها على سائر الأمم.

ولكن الله قد علم ـ وهو اللطيف الخبير ـ أن أداء هاتين المهمتين العظيمتين، سواء على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، أو على يد أمته من بعده، لايمكن أن يتم بغير جهاد، فَأَذِنَ لنبيه صلى الله عليه وسلم ـ بل كلَّفه ـ أن يجاهد، وكلف أمته من بعده ذات التكليف، فأصبح الجهاد في الإسلام فريضة من فرائضه.

إن الجاهلية ـ من جانب ـ لن تَسْكُتَ، ولم تَسْكُتْ قَطّ، على دعوة لا إله إلا الله، ولم تَكُفّ قطّ عن إيذاء الذين آمنوا بها واتبعوها، حتى لو طلبوا المُهادَنة حتى يحكم الله في الأمر كما فعل شعيب عليه السلام:

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ . قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (١)

(١) سورة الأعراف [٨٧ ـ ٨٨].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾[1]

أما هذه الأمّة بالذات، التي تحمل الرسالة الخاتمة، التي تم بهـا الدين[2]، وصارت - على صعيد العالم كله - هي الفيصل بين الكفر والإيمان، بين الحق والباطل. وكتابُها هو الفرقان المحفوظ من عند الله، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

أمـا هذه الأُمّة بالذات فلا يجابهها قوم دون قوم.. بل تجابهها جاهلية الأرض كلها بالعداء وبالعدوان، لأنها تحمل الرسالة التى تجابه الجاهلية كلها على كل مستوياتها، وفي جميـع مجـالاتها: العقيدية والتعبدية والفكرية والسلوكية. السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.. لذلك بيّن الله للأمة هذه الحقيقة، حقيقة عداء جاهليات الأرض كلها لها:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[3]

---

(١) سورة غافر [٥].
(٢) قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [سورة المائدة: ٣].
(٣) سورة البقرة [١٢٠].

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[1]

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[2]

وأَذِنَ الله للأُمّة ـ بل كَلَّفها ـ أن ترد عدوان المعتدين، وأوجب من أجل ذلك الجهاد.

ومن جهة أخرى فإن كلمة الحق ـ التى تحملها الدعوة ـ لايمكن أن تصل على حقيقتها وقوى الشر مُمَكَّنةٌ في الأرض، تشكل ـ بثقل واقعها ـ عائقا نفسيا يعوق النفوس ـ كثيرا من النفوس ـ عن تقبل كلمة الحق، أو تشكل ـ بثقل واقعها. كذلك ـ عامل تشويه يجعل العين ترى الخط المستقيم كأنه منحرف، بينما يبدو الخط المنحرف في نظرها كأنه مستقيم ! وذلك على فرض أنها لم تتدخل ـ أيَّ تدخل من أي نوع ـ لمنع الناس من الاستماع إلى كلمة الحق !

لذلك أوجب الله الجهاد لإزالة ذلك العائق الذي يحول بين الناس وبين رؤية الحق على حقيقته، فيمنعهم بالتالى عن اتباعه.

وهذه هي القضية التي يجادل فيها اليوم كثير من الناس ـ «مفكرين» وغير مفكرين ـ من المنهزمين أمام الغرب،

---

(١) سورة البقرة [٢١٧].

(٢) سورة النساء [٨٩].

يقولون لايجوز القتال إلا ردا على المعتدين ! ويقولون إن الجهاد لنشر الدعوة، أو نشر الدعوة عن طريق الجهاد كانت له ظروف تاريخية أوجبته - أو سمحت به - في حينه. أما اليوم، بعد تأسيس الهيئات الدولية المختلفة، ووجود وسائل الإعلام المفتوحة على العالم كله فلم يعد لمثل هذا الجهاد مكان !

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[(١)].

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(٢)].

بل إن الجاهلية ذاتها لَتَعْلَمُ من هذا الأمر أكثر مما يعلم أولئك المنهزمون، الذين يعتقدون في سذاجة أن هيئة الأمم أو مجلس الأمن أو غيرها من «المحافل الدولية» ! تغني المسلمين عن الجهاد لنيل حقوقهم، أو أن وسائل الإعلام المفتوحة على العالم كله تغني في نشر الدعوة عن الجهاد !

إن الجاهلية لتعلم أن هناك فارقا كبيرا بالنسبة لأية دعوة أو عقيدة، حقة أو باطلة، بين أن يكون لها دولة قوية ممكنة في الأرض أو لايكون لها دولة بهذا الوصف.. وتعلم أن هناك فارقا كبيرا بين أن تكون دولتها منتصرة غالبة وأن تكون دولتها هزيلة منهزمة.

---

(١) سورة البقرة [١٤٠].

(٢) سورة البقرة [٢١٦].

ونظرة سريعة إلى واقع العالم اليوم تترجم هذه الحقيقة ترجمة واضحة..

لماذا سعت الصليبية والصهيونية للقضاء على دولة الإسلام ؟

لماذا لم تكتف في محاربة الإسلام ونشر أفكارها و«حضارتها» بوسائل الإعلام المفتوحة على العالم كله ؟!

الجواب البدهي أنها كانت تعلم جيدا أن الإسلام حين تكون له دولة قوية مُمَكَّنة في الأرض هو غير الإسلام حين لاتكون له دولة. لا لأن عقيدة الإسلام أو قيمة أو مبادئه أو أي شيء فيه سيتغير ـ نظريا ـ مابين وجود الدولة أو عدم وجودها. ولكن لأنه ـ من الوجهة العملية ـ يتغير كل شيء **في حس الناس** مابين رؤيتهم للعقيدة والقيم والمبادئ وكل مايتعلق بها من خلال كيان قوي مُمَكَّن غالب منتصر، ورؤيتهم لها مجردة من القوة، أو مغلوبة منتكسة.

تلك البدهية لم تغفل عنها الجاهلية حين سعت للقضاء على دولة الإسلام، وعلمت أن أولى خطواتها لمحاولة القضاء على الإسلام ذاته هى القضاء على دولته، وتركه ـ بلا دولة ـ مجرد كيان «نظرى» مايفتأ أن يذبل ويموت(١).

ونظرة أخرى سريعة تترجم هذه الحقيقة ترجمة واضحة.

هل تستوى الشيوعية **في حس الناس** وهى ذات كيان

---

(١) لم يمُت، لأن الله قيّض له حركات مجاهدة، قامت ببعث إسلامى جديد.

عسكري وسياسي ومادي قوي مُمكّن في الأرض مع الشيوعية ذاتها إذا زال كيانها هذا أو انهزم في معركة حاسمة ؟!

إن الذين يظنون أن الشيء - في ذاته - هو الذي يؤثّر في الناس أو يقنعهم أو يحركهم، إنما يعيشون في الأبراج العاجيّة، ولاينزلون إلى دنيا الواقع.

إن فريقا من الناس - الممتازين - يتأثر حقا بالشيء في ذاته، ويقتنع بالشيء في ذاته، ويحركهم الشيء في ذاته.. ولكنهم دائما قلة.. في كل شعوب الأرض قلة.. وقد كان من هذه القلة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهذه القلة تكوّن القاعدة الصلبة لكل دعوة.. ولكن لماذا ؟! لأنها تنبعث من ذات نفسها - بمجرد اقتناعها - **للجهاد** في سبيل الحق الذي اعتنقته، لاتحتاج إلى مقوّمات أخرى تبعثها للجهاد. ولكنه الجهاد دائما هو الذي ينصر الحق في النهاية وليس مجرد الاقتناع. أما أكثرية الناس **- الذين يتعامل معهم الواقع -** فإن «الشيء في ذاته» لايكفي لإقناعهم، أو التأثير فيهم، أو تحريكهم للعمل، مالم يكن ذلك الشيء ممثلا في «كيان»، ومالم يكن ذلك الكيان ذا قوة ملموسة(١).

---

(١) ليست القوة العسكرية بطبيعة الحال هي القوة الوحيدة التي تثبت الحق في نفوس الناس، فهناك ألوان كثيرة من القوة **كلها مطلوب**، وليست القوة العسكرية هي التي يُبدأ باستخدامها في الدعوة كما سيجيء تفصيل ذلك =

وهذه الحقيقة تعمل طردا وعكسا في حياة الناس.. أى أن وجود القوة يعطى الشيء في حس الناس وجاهة وقوةَ تأثير (ولو لم يكن حقا في ذاته !) وعدم وجود القوة يذهب عن الشيء في حس الناس الوجاهة وقوة التأثير (ولو كان حقا في ذاته !).

والجهاد لنشر الدعوة منظور فيه إلى هذه القضية بشقيها.. طردا وعكسا.. فكما أن الحق الذى لاتسنده القوة ضعيف التأثير في نفوس الناس، فكذلك يكون للباطل القوى المُمكّن في الأرض وجاهة في نفوس الناس وقوةُ تأثير، تجعلهم مقتنعين به، متحمّسين له، متحرّكين به، مع أنه باطل. ولايتلبثون ليسألوا أنفسهم أحق هو أم باطل ! بل لايقتنعون إذا قيل لهم إنه باطل ! لأن الحقائق لاتصل إلى نفوسهم صافية مجردة (إلا أن يكونوا من القلة الممتازة.. وما أندرها !) ولأن حساباتهم غير منضبطة بضوابط الحق، لعمايتهم عن السُّنن الربانية التى يُجرى الله بها أمور البشر في الأرض، فهم يقولون في أنفسهم ـ بلسان الحال أو بلسان المقال ـ أفلو كان هذا باطلا، أكان يمكن أن يكون بهذه القوة وذلك الرسوخ ؟! مادام مُمكّنا فلابد أنه حق !

فكيف تصنع دعوة الحق إزاء هذه الظاهرة البشرية الكائنة في معظم النفوس، والتى هى في الجاهلية أشد

= بعد قليل. ولكنها دائما مطلوبة، لاغنى عنها في نهاية المطاف.

تأصُّلاً وأشد كثافة ؟!

وكيف تصنــع الأمة المأمورة بنشر دعوة الحق، لإزالة الجاهلية ومحْوِها من نفوس الناس، إذا كانت هكذا نفوس الأكثرية الساحقة من الناس، لا فى القديم وحده، ولكن في الزمن كله، قديمه وحديثه، بل هى في الحديث أشد (على عكس مايظن المنهزمون أمام الحضارة الغربية) لأن وسائل الإعلام الحديثة أشد تضليلا للناس من أى عهد مضى من عهـود التـاريخ ! ولأن انشغال الناس بملذّاتهم (أو بلقمة الخبـز) عن تحليل الأمور وتفنيدها وتبيّن وجه الحق فيها أشد من أى عهد مضى من عهود التاريخ !

فهل تكفى «الكلمة» مهما يكن فيها من الحق ؟!

وهــل الذى تجـابهـه «الكلمة» أمور مجردة، لِيكفي في دحضـهـا بيـان وجـه الحق في القضية، أم الذى تجابهه «الكلمة» دول جاهلية، ونظم جاهلية، وجيوش جاهلية تحمى تلك الدول وتلك النظم، وتعطيها في حس الناس ثقلا ووجاهة وبريقا لامعا يَحجُب تأثير الحق عن النفوس ؟!

وهــذا هو الذى أُمِـرَت الأُمّة المسلمة بإزالته ـ أو في القليل إخضاعه ـ لكى يصل الحق إلى النفوس صافيا من الغبش، فيقتنع به من يقتنع، ويُصرّ على باطله من أراد أن يُصرّ.. بغير إكراه !

إن الذى يفعله الجهاد في الإسلام ليس هو إكراه الناس

على العقيدة، كما قال المستشرقون عمداً ليشوّهوا الصورة في نفوس أوروبا أولا(١)، ثم في نفوس المسلمين أنفسهم بعد ذلك ليخذلوهم عن الجهاد، ويصرفوهم عن هذه الأداة الخطرة التى خَبروها جيدا وعرفوا آثارها!

إن أمر الله صريح: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

إنما الذى أُمرت الأمّة المسلمة أن تقوم به لنشر الدعوة، لتوصيل «الكلمة» صافية للناس بلا غبش، هو إزالة تلك النظم الجاهلية التى تحميها الجيوش الجاهلية - أو في القليل إخضاعها - لأنها ذات ثقل معين في حس الناس، يجعل الحق ينحرف عن مساره في نفوسهم، كما تنحرف الموجات اللاسلكية في الأرض حين تقع عليها «زوبعة مغناطيسية» صادرة من الشمس !!

---

(١) كل مايقوله المستشرقون اليوم لفتنة المسلمين عن دينهم استُخدم قبل ذلك في القرن السادس عشر الميلادى ومابعده لصد أوروبا عن الدخول في الإسلام وقت أن كانت معرضة لذلك. ثم استُخدم لفتنة المسلمين عن دينهم فيما بعد حين ضعف المسلمون وأرادت أوروبا إخضاعهم لنفوذها الصليبى.

(٢) سورة البقرة [٢٥٦].

ومع ذلك فإن الأمّة المسلمة لم تُؤمَر بالقتال بادئ ذي بدء. إنما أُمرت أن تعرض الحق قائما بذاته، فإن قُبلَ منها فقد انتهت المهمة وكفى الله المؤمنين القتال. وإن لم يقبلوا الحق عُرِضَ عليهم أن يدفعوا الجزية، علامة الخضوع وعدم التعرض للحق من جهة، وليزول من حس الناس من جهة أُخرى ذلك الحاجز الذى يمنع وصول الحق صافيا إلى الناس، ويحرف إشعاعه عن مساره الصحيح.

فإن أَبتِ الجاهليةُ الحقَّ، وأبت أن تزيل الحواجز من طريقه ليصل للناس صافيا بلا غبش، فعندئذ فقط يكون القتال لإزالة تلك الحواجز القائمة في طريق الحق.. فإذا زالت كان الناس أحرارا بعد ذلك، يختارون لأنفسهم مايشاءون، وحسابهم على الله.

تلك هى «مشروعية» الجهاد في الإسلام. وذلك دوره في نشر الدعوة. لالفرض العقيدة الإسلامية على الناس، فالعقائد لاتُفرَض بالقوة:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾(١).

ولا للتوسُّع في الأرض، ولا للاستيلاء على أموال الناس، ولا للاستزادة من مظاهر القوة، ولا لمجرد الغلبة والقهر كما

---

(١) سورة يونس [٩٩].

تسعى النظم الأرضية حين تتوسع في الأرض[1].

والذى أَمَـرَ بالجهـاد - على هذه الصـورة - هو رب العـالمين سبحـانـه، رب السمـاوات والأرض ومن فيهن، صاحبُ الأَمْر في الدنيا والآخرة، لامُعقّب لحكمه، ولا عِلْمَ فوق عِلْمه، ولا حكمة وراء حكمته.

والذين يقولون إن هذا كله كان لظروف تاريخية انتهت ولم يعد لها وجود، يقولون على الله بغير علم، أو يزعمون أن هذه الأوامر الربانية كانت موقوتة بزمن معين - ولاسند لهم في ذلك من كتاب أو سنة - ويزعمون لأنفسهم بصرا بأحوال الناس، وبالسنن التى تحكم حياة البشر في الأرض، أصدق من حكم الله سبحانه.

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[2].

* * *

هذا من جهة أثر الجهاد في نشر الدعوة.

ولابـد من رؤية الأمر كذلك من داخل النفوس.. نفوس الأُمّة المسلمة.

إن الحيـاة بلا جهـاد، ولا عزيمة عليه، ترهل النفوس،

---

(١) لايتسع المقام هنا للحديث عن الفَرْق بين الفتوحات الإسلامية وحركات التوسع والاستعمار في القديم والحديث، ولكن تكفى الإشارة.

(٢) سورة الأحزاب [٤].

وتفسد كل قِيَمِ الحياة.. إذ يُصبح همّ الإنسان هو المتاع.
والله سبحانه وتعالى لم يُحرّم المتاع :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١).

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢).

ولكنه سبحانه وتعالى - وهو العليم بنفوس عباده - لايستحب لهم أن يغرقوا في المتاع، حتى لو كان حلالا كله، لأنه يعلم أن هذا يفسد نفوسهم، ويفسد اهتماماتهم. لذلك يقول سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ. ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا

---

(١) سورة البقرة [٣٦].
(٢) سورة الأعراف [٣٢].

ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ. ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[1].

فحبب إليهم أن ينشغلوا بتلك «القيم» لكى لايتهافتوا على المتاع - ولو كان طيّبا - ولايصرفوا هممهم كله إليه.

ثم جعل ذروة سنام الأمر كله الجهاد..

والجهاد - فوق كل شىء - هو العلاج للترف الأكّال، الذي يأكل حياة النفوس وحياة الأمم، ويحيلها رمادا باردا مبعثرا، كما تحيل «دابة الأرض»[2] الخشبَ القوىَّ المتماسك إلى فتات متهافت!

والعلاقة بين الجهاد والنرف هى علاقة التضاد الكامل من كلتا الجهتين! فكما أن الجهاد يمقت الترف والمترفين، فإن المترفين يكرهون الجهاد وينفرون منه ويتخاذلون عنه:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ. رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران [١٢ - ١٧].

(٢) دابة الأرض المشار إليها في الآية الكريمة: ﴿فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ [سورة سبأ: ١٤]. هى «الأرضة» التى تأكل الخشب وتحوّله إلى تراب.

(٣) سورة التوبة [٨٦ - ٨٧].

وتنظر إلى الإنسان المجاهد والإنسان المترف فكأنما هما نوعان من البشر لايربط بينهما رابط ! أحدهما تحس فيه العزم والقوة، والمتانة والصلابة، والقدرة على التحمّل، والقدرة على الحركة، والقدرة على المواجهة.. والآخر تحس فيه التهافت والتخاذل، والليونة والطراوة، والعجز عن بذل الجهد، وعن تحمل التبعة، وعن مواجهة الصعاب.. أحدهما كالواقف على شرف من الأرض[1]، يستشرف ليرقب حركة كل شيء، ليتخذ لنفسه الموقف المناسب، والآخر كالجالس في السفح، المستنيم لما حوله، العاجز عن التحوّل لو دهمه مايستلزم التغيير.. أحدهما يرقب معالى الأمور، والآخر يرقب سفسافها.

والحياة وقيمها مختلفتان تماما في حس هذا وذاك.

كلاهما يعيش.. نعم. ولكن شتان مابين حياة وحياة. أحدهما يستشعر وجوده بمقدار مايبذل من الجهد «للصعود».. بقدر مايستطيع أن يرتفع على نفسه ويتغلب على أهوائها. بمقدار مايسعى إلى تحقيق الأهداف العليا التى يعيش لها: العزة والكرامة، والحق والعدل، وترقية الحياة في كل ميادينها المتاحة. والآخر يستشعر وجوده ـ إن أحس أن له وجودا ـ بمقدار مايسرف في تحقيق لذائذه الدنيا، وبمقدار مايحس في نفسه من الترهّل والكسل عن

---

(١) الشرف من الأرض هو المكان المرتفع.

بذل الجهد، مع الاستكبار الفارغ على عباد الله، ونظرة الازدراء المَقيتة إلى «المحرومين» في نظره من المتاع!

وكلاهما في النهاية يموت.. ولكن شتان مابين ميتة وميِتة!

أحدهما يستقْبِلُه الخُلد.. يستقبله رضوان الله.. وذكراه العطرة حيَّة في نفوس الأحياء.. والآخر يستقبله الإهمال والنسيان.. ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(١)

ثم يستقبله العذاب.

والإسلام دين الحياة. دين العزة والكرامة والحق والعدل. الدين الذى يسعى لترقية الحياة في كل ميادينها المتاحة.. ولذلك فهو دين الجهاد. لأن الجهاد هو صنو هذه المعانى كلها.. وكلها لاينال في الأرض إلا بالجهاد.

والجهاد بهذا الاعتبار هو «المِلاَطُ» الذي يمسك البناء ويُقِيمُه، ويمنعه مَن الانهيار، ويتيح له أن يعلو ويعلو ماشاء له الجهد المبذول فيه.. بتوفيق من الله. وهو «المُطَهِّر» الذي يُطَهّر الحياة من الجرثومة التى تسبب الترهّل والتّفسّخ والهبوط.

وفي الوقت ذاته هو الأداة لتبليغ دعوة الحق. لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. لإزالة الطواغيت من الأرض.

---

(١) سورة التوبة [٦٧].

لتعبيد الناس لربهم الحق، وتحريرهم من العبودية لغير الله. فيتحقق المعنى الذي عبر عنه رِبْعِيُّ بن عامر ذلك التعبير القوى الأخّاذ: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

رحم الله رِبْعيًّ بن عامر.. لقد بلور الجهاد الإسلامى كله في تلك الكلمات التى يشع منها النور.

* * *

وغَنىّ عن البيان أن الجهاد فُرِض على مراحل. وأنه كانت لكل مرحلة ظروفها التى تستدعيها في علم الله.

فمرة كان الجهاد بالثبات على العقيدة مع كَفّ الأيدى. ومـرة كان مجرد إذن بالقتال لتهيئة النفوس له. ومرة كان قتالا للمعتدين فقط، ومرة كان قتالا عاما للمشركين كافة، سواء بدؤوا القتال من جانبهم أو لم يبدؤوه. وفي كل مرة كانت له ظروف تجعله هو الصـواب وغيـره الخطأ، أو هو المباح وغيره ممنوع. ولا أدل على ذلك من قوله تعالى في مرحلة من مراحـل الجهـاد:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(١).

(١) سورة البقرة [١٩٠].

فجعل قتال الذين لم يبدؤوا المسلمين بالقتال **عدوانا** وأخبر سبحانه أنه **لايحبه** ، ثم جعله هو ذاته في المرحلة التالية تكليفا، وحض عليه تحضيضا في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

فجعل الأمر الذي نهى عنه من قبْل، وأخبر بأنه لايحبه، واجبا مفروضا، ووصفه بأنه من تقوى الله، وأخبر أنه يحبه ويؤيده.

ولقد كان الوحى هو الذى ينقّل خُطى الجماعة المسلمة من مرحلة إلى مرحلة من مراحل الجهاد، بحسب الحكمة الربانية التى تُرتّب كل خُطوة في مكانها الصحيح، كما تنزل الآيات القرآنية في موعدها المناسب من مسيرة الجماعة المسلمة، وبالقدْر المطلوب.

ولم يعد الوحى اليوم يتنزل، فأصبح الاجتهاد البشرى هو الذى يحكم حركة الجماعات الإسلامية في مسيرتها التاريخية، فلزم أن نجتهد أولا في معرفة الحكمة من كل مرحلة من مراحل الجهاد التى مرت بها الجماعة الأولى، حين كان الوحى ينقّل خُطاها على الطريق.

---

(١) سورة التوبة [١٢٣].

كانت المرحلة الأولى في مكة: الثبات على العقيدة أمام بطش قريش واضطهادها للجماعة المسلمة، وتعذيبها لأفرادها، مع الأمر الرباني:

﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].

ولم يرد في كتاب الله - ولا في سُنة رسوله صلى الله عليه وسلم - بيانٌ لحكمة كفّ الأيدي في هذه المرحلة، سوى ماجاء في شأن الابتلاء وأنه سُنّة من سنن الله مع أصحاب الدعوات خلال التاريخ، وأنه من خلال الابتلاء يحدث التمحيص.

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ. وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[2].

«قد كان مَنْ قَبلكُم يُؤتى بأحدهم فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه ولحمه، مايصده ذلك عن دينه»[3].

أما حكمة كف الأيدى مع هذا الابتلاء فتُستنْتَجُ استنتاجاً من سَيْر الأحداث.

---

(١) سورة النساء [٧٧].
(٢) سورة العنكبوت [٢ - ٣].
(٣) أخرجه البخاري.

لو دخل المسلمون معركة مع قريش، فلربما أُبيدوا كلهم أو أُبيد أكثرهم في المعركة.. وذلك من قَبْل أن يتبين الناس حقيقة المعركة، فِيمَ دارت، ولأَىّ شىء قامت.. فتكون صورتها في حس الناس أن فريقين من قبيلة واحدة يتنازعان ويتشاجران فيما بينهما، ثم اقتتل الفريقان فقضى الفريق الأقوى على الفريق الأضعف ـ الناشز عليه ـ وانتهى الأمر فلم يعد يشغل بال أحد من الناس !

ولكن مع الأمر الربانى بِكَفّ الأيدى تغيّر خطّ التاريخ.

فقد ابتُلِيَ قوم فى أموالهم وأنفسهم بسبب عقيدة اعتنقوها، وعُذّبوا عذابا شديدا لاقِبَلَ لأحد باحتماله، فثبتوا على عقيدتهم لم يتحوّلوا عنها رغم التعذيب والاضطهاد والتنكيل.. فلفت هذا أنظار الناس إلى عدة أمور :

أولا: أن هذه عيّنة جديدة من البشر.. غريبة على البيئة ! فلم تعهد البيئة من قبل أن يُعذّب أحد فيها هذا التعذيب، ولا أن يحتمل فيها أحد ذلك العذاب !

ثانيا: أن الذى دفع هؤلاء الناس إلى احتمال كل ما احتملوا ليس أمرا من أمور الدنيا.. وليس في الدنيا كلها أمر واحد يستحق الإصرار عليه مع هذا العذاب !

ثالثا: أن الذى صبر عليه هذا الفريق من الناس مع كل التعذيب والاضطهاد والتنكيل الذى وقع عليهم لابد أن يكون

حقا، فليس من طبع البشر المُعتاد أن يصبروا هذا الصبر على الباطل.

رابعـا: أن هذا الحق الذى صبـر عليه هؤلاء لابد أن يكون ثمينا جدا.. أغلى من أرواح الناس وأموالهم.. فقد قدَّمُوا أرواحهم وأموالهم دُونه، ولم يتزحزحوا عنه.

خامسا: أن الذى يقوم بتعذيبهم هذا العذاب البَشِع لابد أن يكون ظالما مجرما فاقدا للأحاسيس الإنسانية التى تُميِّز الإنسان عن غيره من الكائنات.

(وذلك فضلا عن حِكَمٍ أخرى لايتسع المقام لذكرها في هذه العُجالة).

ولانقول بطبيعة الحال إن هذه الأمور كلها قد اتضحت لكل الناس، أو إنها غيرت مواقفهم من القضية. ولكن المؤكد - من واقع التاريخ - أنها اتضحت لفريق من الناس، فغيرت موقفهم من التـأييـد لقـريش أو عدم المبـالاة بما يحدث للمؤمنين، إلى التأييد للمؤمنين في موقفهم، بل إلى الدخول في زمرتهم.. وأولئك هم الأنصار.

وبمجيء الأنصـار اتسعت القـاعدة - القاعدة الصلبة التى بُنيت خلال الابتلاء - فشكّلت حجما يمكن أن يؤثر في سير الأحداث.. وعندئذ جاء الإذن بالقتال.

وفي مرحلة من مراحـل نمـو القـاعدة المؤمنة، بتوالى انضمـام المـؤمنين إليها، وانخراطهم في نشاط الجماعة

المسلمـة: نشـاطهـا الإيمـانى، والتعبّـدى، والاقتصادى، والحـربى، والسيـاسى، أصبحت للجماعة الإسلامية قدرة قتالية تستطيع بها أن تواجه الأعداء، وأن تتغلب عليهم - بصفاتها المتميزة الفائقة وإن كانت أقل عددا من أعدائها - فجاء الأمر بقتال الذين يعتدُون على المسلمين، لتأديبهم، وكَفِّ أذاهم، وتقـريـر قدرة الجمـاعـة المسلمـة على رد العدوان.. فيفكر الأعداء مرات قبل أن يُقْدِموا على العدوان.

وعلى الرغم من ذلك فقد مُنع المسلمون في هذه المرحلة من أن يبدؤوا القتال من جانبهم، بل أُمروا أن يَكتفوا بِرَدّ العـدوان الذى يقـع عليهم. وسُمّيَ ابتداؤهم بقتال من لم يقاتلهم **عدوانا**، وأخبرهم الله أنه لايحب ذلك منهم، لأنهم في هذه الحالة معتدون.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

ولو وقف أمر القتال هنا - كما يزعم فريق من «الكُتّاب» و «المفكرين» المسلمين - لَفَهِمْنا أن هذه - في حكم الله - قاعدة دائمَة لاتتعلق بظرف معين. إنما هى أمر ربانى دائم بألا يتجاوز المسلمون في القتال ردّ العدوان.

ولكن مجيء الأمر الربـانى بعد ذلك بقتال المشركين كافـة، وقتال «الذينَ يَلونَكم مِنَ الكُفّارِ». أى كل من يقع على تُخُوم الأرض الإسلامية، سواء بدأ المسلمين بالقتال

أم لم يبدأ، هو الذى يجعلنا نقف وقفة عند قوله تعالى في المرحلة السابقة : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

كيف يكون هذا الأمر عدوانا لايحبه الله، وهو ذاته الذى أمر به سبحانه وتعالى فيما بعد ؟ ماالذى جعله عدوانا مرة، وتكليفا مطلوبا مرة أخرى.. ماالذى تغير؟ وماميزان القضية ؟

نستطيع أن نُدرك الحكمة إذا رجعنا إلى مصلحة الدعوة، ومصلحة الجماعة المسلمة، كما يقدرها الله سبحانه وتعالى.

هل كانت تستفيد الدعوة من دخول المسلمين معركة مع الأعداء الذين لم يبدؤوا بالهجوم، مع كون المسلمين يومئذ عاجزين عن المواجهة الشاملة، التى يمكن أن تُؤَلّب الأعداء، وتحفزهم على التجمع للقضاء على الدولة الناشئة قبل أن تُمَكّن في الأرض ؟! أم إن ذلك يكون ضررا محققا على الدعوة وعلى الجماعة المسلمة، يُحَجّم نشاطها منذ البدء، ويمنعها من أداء مهمتها العظمى التى أخرجها الله من أجلها : الدعوة للبشرية كافة، والشهادة على البشرية ؟

وإذ كان ضررا محققا للدعوة وللجماعة المسلمة، فقد قرر الله أنه **عدوان**، وأخبر سبحانه بأنه لايحب المعتدين !

فَلَمْ يُسَمَّ الأمر إذاً عدوانا لأنه مبادأة لقوم بالقتال دون أن يكونوا هم البادئين، كما قد يبدو للنظرة السريعة. فقد أَذِنَ الله في المرحلة التالية ـ بل أمر ـ بقتالهم، سواء كانوا بادئين أم لم يكونوا. ولم يُرتّب قتالهم على أنهم قد بدؤوا المسلمين بالعدوان، بل على أنهم كفار مصرون على الكفر، أى **محاربون لله ولدينه**، وأن وجودهم في حالة تمكّن وانتصار وغلبة هو فتنة لايجوز أن تبقى في الأرض، ومَنْعٌ للدين أن يكون كله لله :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(١).

فقتالهم إذن ليس عدوانا في ذاته، والمسلمون لايقاتلونهم لحسابهم الخاص، ولاتحقيقا لمصالحهم الخاصة، إنما حسبةً لله سبحانه وتعالى، وتنفيذاً لأمره، وإنما كان عدوانا في المرحلة السابقة من أجل أثره الضار على دعوة الحق، وعلى الأمة التى تحمل دعوة الحق. فلما ارتفع الضرر المُحَقّق ـ أو حتى المُرَجّح ـ سار الأمر على أصله الذى قرر الله أن يكون عليه، لإزاحة العوائق من طريق الحق، حتى يصل إلى الناس صافيا بلا غبش، ويقرروا موقفهم الذى يقررونه غير متأثرين بتلك العوائق التى تحرف

---

(١) سورة الأنفال [٣٩].

الحق في نفوسهم عن مساره الصحيح.

وتلك هى قصة الجهاد الإسلامى من أول الثبات على العقيدة وكف الأيدى، إلى الأمر بقتال الذين يَلُونَ المسلمين من الكفار. وواضح من تتبع تلك المراحل أن المنع والإباحة، والقدر الذى يُسْمَحُ به من المباح، لايتوقف على تغير يطرأ على طبيعة الأعداء، أو على موقفهم من الدعوة. فطبيعة الأعداء واحدة لاتتغير، وموقفهم من الدعوة واحد لايتغير:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [1].

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [2].

إنما يكون المنع والإباحة، والقدر الذى يسمح به من المباح، بحسب مصلحة الدعوة، ومصلحة الأُمّة المسلمة، بالضوابط الربانية التى تقدر المصلحة ابتداءً، وتقرر مايلزم لتحقيقها.

* * *

والآن فلننظر ماالذى ينطبق علينا من هذه المراحل في الأحوال الحاضرة التى تمر بها الحركة الإسلامية.

---

(١) سورة البقرة [١٢٠].

(٢) سورة البقرة [٢١٧].

من الواضح أننا اليوم لانستطيع ـ ولا نُكلَّف ـ أكثر من رد العدوان.

بل إن الظروف في أكثر بلاد العالم الإسلامى تقتضى التركيز على إنشاء القاعدة المُؤمِنَة، المتخلِّقة بأخلاق لا إله إلا الله، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة. لا لأننا في المرحلة المكّيّة كما يقال أحيانا. فنحن ـ بداهة ـ نصوم، ونؤدى زكاة أموالنا بمقاديرها الشرعية المحددة، ونلتزم في علاقاتنا الأسرية بالتعاليم الربانية[1]، وهذه التشريعات كلها لم تنزل إلا في المدينة. إنما نحن **في حركتنا، في ظروف** تشبه المرحلة المكية من حيث إن الدعوة لم تُمكّن بعد، ولم تصبح بعد دولة. أما من حيث **التكاليف** فنحن مكلفون **بكل** مانزل من التشريعات في المدينة، **ننفذ منها مانقدر على تنفيذه**، ومانعجز عن تنفيذه بسبب من الأسباب، فعذرنا إلى الله فيه أننا نسعى ماوَسِعَنا الجهد إلى إقامة حكم الله.. ونرجو من الله أن يغفر مايقع من تقصير.

فلننظر في **الظروف** الراهنة، لنقرر ـ باجتهادنا[2] ـ أين تقع المصلحة.

---

(١) المقصود هنا هو الحركات الإسلامية الملتزمة بالإسلام.

(٢) لانملك إلا الاجتهاد، لأن قضايا الحركة تحكمها الظروف، والظروف هى التى تحدد موقعنا من مراحل الجهاد الأربع.

في العالم الإسلامى اليوم صحوة مباركة إن شاء الله، تنادى بالعودة إلى الإسلام في صورته النقية الخالصة، المستمدة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم، ونبذ الأحوال الجاهلية التى سَرَتْ إلينا بحكم غلبة الغرب علينا، وتنحية شريعة الله عن الحكم، وإزاحة المنهج الربانى عن التطبيق في واقع الحياة.

ولكن حجم الصحوة ـ الملتزمة الواعية ـ مازال صغيرا بالنسبة لمجموع الأُمّة الإسلامية، التى يبلغ تعدادها اليوم ألف مليون من البشر.

وقد يكون كثير من هذه الألف مليون راغبا اليوم في الإسلام، وراغبا في تحكيم شريعة الله، بعدما انسلخ من عمر الدعوة نصف قرن أو أكثر، بينت فيه للناس مابينت من حقائق الإسلام. ولكن الكثرة الكاثرة منهم ماتزال تجهل حقيقة مبدئية من حقائق الإسلام، ويؤثر هذا الجهل تأثيرا بالغا في سير الدعوة، وفي تقرير مرحلة الجهاد المناسبة لها.

يعتقد كثير من الناس أن الأوضاع القائمة في معظم أرجاء العالم الإسلامى هى أوضاع إسلامية. ولكن تنقصها «تكملة» ضرورية هى تحكيم شريعة الله. فإذا جاءت هذه التكملة ـ دون بذل جهد ولاتعرض للأخطار ـ فبها ونعمت.. وإلا فالأوضاع إسلامية على أى حال !

ونقطة الجهل المبدئية في هذا الشأن هى عدم معرفة هذه الجماهير أن تحكيم الشريعة ليس «تكملة» لأصل إسلامى موجود بالفعل، ولكنه «تأسيس» لذلك الأصل ! بمعنى أن الأوضاع **لاتكون** إسلامية إلا إذا حكمت شريعة الله:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

هذا الجهل - كما قلنا - يؤثر تأثيراً بالغا في سَيْر الدعوة، لأنه يُتيحُ للطّغاة الذين لايحكمون بما أنزل الله أن يُوهموا الجماهير بشرعية وجودهم، وبأن الحركات الإسلامية التى لاتعترف بشرعيتهم هى الخارجة على الشرعية ! وهى التى يجب أن تُحاكَم لخروجها على الشرعية ! ومن قبل قال فرعون لقومه عن موسى ودعوته : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[2].

كما يتيح هذا الجهل للطغاة - وهم يملكون وسائل الإعلام - أن يُشوّهوا سمعة الحركات الإسلامية، ويقولوا

---

(١) سورة النساء [٦٥].

(٢) سورة غافر [٢٦].

للجماهير: هل تظنون أن هؤلاء يعملون من أجل الإسلام ؟!
إنهم يسعوْن إلى الحُكْم ويتستّرون وراء الإسلام !

ثم يتيح لهم أخيرا أن يستفردوا بالجماعات الإسلامية فَيُذَبّحوها تذبيحا وهم آمنون !

في هذه الأوضاع التى وصفناها، هل يكون من صالح الدعوة أن تدخل الحركات الإسلامية في معارك مع السلطة، قبل أن تعرف الجماهير حقيقة القضية ؟!

قد يقول قائل : إن الجماهير صارت تعرف جيدا أن الحركات الإسلامية تطالب بتحكيم شريعة الله.. نعم ! ولكن هذه الجماهير كما قلنا لاتعرف أن إقامة شرع الله ليست من باب «التكملة» لوضع إسلامى قائم، إنما هى من باب «التأسيس» للوضع الإسلامى، الذى **لايكوْن** إسلاميا بغير تحكيم شريعة الله (بصرف النظر عن عقائد الأفراد ، فهذه قضية أخرى مختلفة، مناطها الرضا أو عدم الرضا بالأوضاع التى لاتحكم شريعة الله : «**فمن أَنكر فقد برئ ، ومن كَره فقد سَلِم، ولكن من رَضِيَ وتابع**»)[(١)]. وفرق كبير - في نفوس الناس، وفي واقع الحركة الإسلامية - بين أن تعرف الجماهير هذه الحقيقة أو لاتعرفها. فرق يقرر نوع الحركة المناسبة للدعوة في هذه المرحلة من سير الأمور.

---

(١) أخرجه مسلم.

فحين تكون الجماهير جاهلة لهذه الحقيقة - كما هو الحال في الواقع - تنقلب القضية في حس الناس - حين يحدث الصدام مع السلطة - إلى معركة داخلية بين فريقين من الأمة، تقف الجماهير منها موقف «الفرجة»، ويكون موقفها النهائى منها كما يقول المتنبى :

النـاس من يلق خيرا قائلون له
مايشتهى ! ولأم المخطىء الهبل !

بمعنى أنه لو انتصرت الحركات الإسلامية تصفق لها الجماهير ! أما إذا انهزمت فإن الجماهير تُنْحي عليها باللائمة، وتُحمّلها نتيجة مايحدث لها، وإن استنكرت مايقع عليها من التعذيب الوحشى !

وهكذا تضيع قضية «الشرعية».. وقضية «الحق والباطل» وتصبح القضية قضية ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب ! وتتغبش في حس الناس قضية الدعوة الأولى، التى ينبنى عليها البناء كله، ويقوم من أجلها الجهاد كله.. وهى قضية لا إله إلا الله.

ولمثل هذه الاعتبارات كان الأمر الربانى للمسلمين في مكة : ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾(١). حتى يتبين الحق بلا غبش، بالبيان المتواصل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

(١) سورة النساء [٧٧].

﴿ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [(١)].

وحين يتم تفصيل الآيات بالقدر الكافى، وتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين، فعندئذ يقع الصدام من جانب الجاهلية - وهو دائما يقع من جانب الجاهلية - فَيُؤذَن للمؤمنين بردّ العدوان، ويقع أمر الله، فيهلك من هلك **عن بيّنة** ويحيى من حىّ **عن بيّنة**.. ويُنْفِذُ الله أمره ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)].

ولهذه الاعتبارات ذاتها نقدم النصيحة للحركات الإسلامية في أكثر بلاد الأرض أن يُبيّنوا للناس حقيقة لا إله إلا الله، ويركّزوا جهدهم أولاً في إنشاء القاعدة الصلبة المؤمنة بلا إله إلا الله.

أما الجهاد الأفغانى فقد كان له ظرف آخر.

---

(١) سورة الأنعام [٥٥].

(٢) سورة يوسف [٢١].

الجهاد الأفغاني

كانت للجهاد الأفغانى ظروف خاصة غير مكررة في أى قطر من أقطار العالم الإسلامى في الوقت الحاضر.

فبقَدَر من الله ـ أو قُلْ بفضل من الله ـ دخل العدو الأحمر الكافر المعركة بنفسه.. فلم يعد عند الناس غبش حول قضية «الشرعية»، كما هو حادث عند الجماهير في بلاد لاتحكم بشريعة الله، ولكن يحكمها أناس يحملون أسماء إسلامية، ويستعرضون أنفسهم بين الحين والحين في صلاة أو عمرة أو حج، فتتوهم الجماهير بسبب هذه المُلابسات أن لهم شرعية رغم أنهم لايحكمون بما أنزل الله، ومن ثَمّ تنعزل الجماعات الإسلامية وحدها في هذه القضية الخطيرة، فيستفرد بها الطاغية فيُذبّحها.

دخل العدو الكافر بنفسه، فحُسمت القضية في حس الشعب الأفغانى، فقامت **الأمة كلها** تجاهد، ولم تنفرد بالجهاد جماعة صغيرة منعزلة، كما هو حادث في أماكن كثيرة من العالم الإسلامى، فتُتّهم بالتطرّف والانحراف.

ودخل العدو بمبادئ لا شبهة عند الناس في كُفرها،

ومعاداتها للدين كله جملة، وللإسلام بصفة خاصة، فلم تعد هناك شبهة في طبيعة المعركة، وأنها معركة الكفر والإيمان.

وتبلورت القضيـة في حس الشعب الأفغـاني، بفعـل التوعية التى قام بها الدعاة إلى الجهاد، فصارت القضية أن أفغانستان أرض إسلامية اغتصبتها الشيوعية الكافرة، وينـبـغـى أن **تُردّ للإسـلام** لالشخص بعينـه، **وللحكم الإسلامي**، لا لأى حكم يقوم فيها بعد إخراج الغزاة، فانتفى خاطر الدافع الوطنى أو القومى، أو الحزبى، أو الشخصي، أو الدفـاع عن التراب من أجل التراب.. وصارت القضية خالصة للإسلام.

* * *

ظروف كما ترى غير مكررة في أى قطر من أقطار العالم الإسلامى في الوقت الحاضر.. هيأها الله سبحانه وتعالى لأمر يُراد.

وقـد كان في حسي منـذ دخـل العـدو الأحمر الكافر المعـركة بنفسه، وقامت الأمة مجتمعة للجهاد[١]، أن الله

---

(١) حين نقول الأمة مجتمعة لانقصد بطبيعة الحال كل فرد فيها، فلا يوجد أمة في التاريخ كله اجتمعت كلها على عزيمة واحدة، ولامجتمع الرسول صلى الله عليـه وسلم الذى كان يحـوى المنـافقين وضعـاف الإيمـان والمعوقين والمثاقلين، ولكن القاعدة كانت من القوة والصلابة بحيث حملت هؤلاء جميعا وتحركت بهم إلى أهدافها.

يريد بهذا الجهاد أمراً، وأنه نقطة تحوّل تاريخية لها مابعدها[١].

ولكن دعنا الآن نستعرض بعض جوانب هذا الجهاد الفذّ، الذى يندر مثاله في التاريخ.

لقد كانت هَبَّة الأمة للجهاد في ذاتها أمرا عجبا بالنسبة لجميع الظروف !

فالعالم الإسلامى المنكوب بالاستعمار ـ سواء العسكرى أو السياسى أو الاقتصادى أو الفكرى ـ ساكن ساكن كأنه يعيش حياته الطبيعية العادية ! وكأنه ناعم البال لايقض مضجعه شىء ! فإن أقض مضجعه شىء فغلاء الأسعار، وانخفاض الدخول، وقلة البضائع في الأسواق، وكون الأغلبية الساحقة في فقر مُدْقِع، وإلى جوارها أقلية تعيش في ترف فاجر، لاتعرف كيف تنفق مافى يدها من المال.

ومع ذلك فهذه الأوضاع السيئة لاتمنع الشعب من اللهو والطرب، والغناء والموسيقى، والشواطئ العارية والصحافة العارية والأفلام العارية، وألوان أخرى من المتاع الحرام «يسلى» بها نفسه، ويغرق فيها آلامه، ولايتجمّع مرة تجمّعاً جادّا لتغيير الأحوال !

وإن فكّر في التغيير فهو يفكر من داخل القفص الذى

---

(١) سنتكلم عن الدلالة التاريخية للجهاد الأفغانى في فصل مستقل.

وضعه فيه الاستعمار. وقد يهديه تفكيره إلى الانتقال من أحد المعسكرين إلى الآخر، أي إلى نَقْل تبعيّته من سيد إلى آخر.. ولكنه لايفكر في التخلص من حالة الرّقّ ذاتها ليصبح من الأحرار !

ولذلك أسبابه التاريخية ولاشك.

فعندما ضعفت الأمة الإسلامية لبُعدها عن حقيقة الإسلام، وانحرافها المتواصل عن قِيَمِه ومبادئه ومفاهيمه، وخُوائها الداخلي من مصدر القوة الحقيقية، ومصدر الإشعاع المنير، وقعت فريسة الانبهار بما عند أوروبا، فحوّلتْ محور ارتكازها من الإسلام إلى الحضارة الغربية، وصارت تدور - حيث دارت - ووجهها متجه إلى أوروبا(١) !

وحين يئست بعض الشعوب الإسلامية من المعسكر الغربي، أدارت وجهها إلى المعسكر الشرقي (أو زُيّن لها ذلك لأمر يُراد)، ولكنها لم تتصور، ولم يَدُر في خلدها، أن تعود إلى نفسها.. إلى تراثها.. إلى دينها.. إلى مقوماتها الذاتية.. لأنها - في الحقيقة - كانت قد أرخت قبضتها من ذلك كله قبل أن يأتي الاستعمار، فلما جاء الاستعمار نزع يدها كلّيّة مما كانت قد أرخت قبضتها عنه، وعمل على

---

(١) راجع إن شئت كتاب «واقعنا المعاصر» فصل «خط الانحراف» وفصل «آثار الانحراف».

منعها من العودة إليه لو فكرت يوما أن تعود.

ولقد ثارت الجزائر ثورتها الشهيرة - ثورة المليون شهيد - وثارت مصر، وثارت سوريا، وثار غيرها من الشعوب الإسلامية، ولكنها كانت ثورات مَشُوبة، لوّثها الغزو الفكرى، فصارت «وطنية» أو «قومية» أو «اجتماعية» أو أى لون من ألوان الثورة إلا أن تكون خالصة للإسلام! ورغم أن القاعدة الشعبية في كل هذه الثورات كانت قاعدة إسلامية - بالفطرة - فإنها لم تكن على وعى كامل بحقيقة الإسلام، بتأثير الانحراف التدريجى الطويل، فسَهُل على قياداتها العلمانيّة الملوّثة بالغزو الفكرىّ أن تحوّلها عن مسارها الفطرى وتلتوى بها عن الطريق.

ثم فَتَرت هِمَمُ هذه الشعوب عن الجهاد، حتى في تلك المسارات المنحرفة، بتأثير وسائل الإفساد ووسائل الغزو الفكرى التى بثها فيها المستعمر.. حتى افتعلت فيها أخيرا «ثورات!» مفروضة من أعلى، لتعمق الغزو الفكرى أكثر، وتبعد الأمة عن الإسلام أكثر، وتجرفها في طريق الضياع!

لذلك كانت هَبّة الأمة الأفغانية للجهاد الإسلامى أمراً عجباً بالنسبة للظروف، وحدثا من أحداث التاريخ.

* * *

وكانت هذه الهبة عجيبة من باب آخر.

أشرنا من قبل إشارات عابرة إلى «الفساد» الذى فشا فى الأمة الإسلامية بتأثير الاستعمار والغزو الفكرى.

وينبغى دائما أن نقرر أن وضع الأمة قبل أن يجيء الاستعمار لم يكن هو الوضع الصحيح المحقِّق لخيرية هذه الأمة، بل كان قد بعُد عنه مسافات هائلة، وإن كان حتى تلك اللحظة كان مايزال داخل الدائرة، لأن الناس - في أقل الأحوال - كانوا مايزالون يُصلّون ويتحاكمون إلى شريعة الله، رغم كل الانحرافات التى وقعوا فيها خلال قرون طويلة من مسيرتهم التاريخية.

ولكن ينبغى أن نقرر إلى جوار ذلك أن الاستعمار قد جاء من عنده بمفاسد جديدة - مُتَعمَّدة - لإلقاء الأمة وراء الحاجز الأخير الذى استندت إليه لتحافظ على هويتها الإسلامية (الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله) ليسهل الإجهاز عليها بعد ذلك، بعد أن تفقد كل مقومات الحياة الحقيقية، وتصبح غثاء كغثاء السيْل كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا، فتأخذها الدوامة حيث شاءت، لاتملك نفسها من الدّوّامة وهى بلا جذور :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَة إلى قَصْعتها، قالوا: أَمِنْ قلّة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثَاء كغُثَاء السيل، ولينزعنّ الله

المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوَهْن. قالوا: ومالوَهْن يارسول الله؟ قال: حُبّ الدنيا وكراهية الموت»(١).

كان من المفاسد الجديدة التى جاء بها الاستعمار التعالن بالفاحشة باسم «التحرر» و «الانطلاق» و «المدنية»، والدعوة إلى السفور والدعوة إلى الاختلاط. وكان منها توسيع دائرة «اللهو»، باسم «الفن» و «الرقى» و «الحضارة». فمرة مسرح، ومرة سينما، ومرة إذاعة ماجنة تقدم الغناء الفاحش والتأوهات المريضة والألفاظ العابثة، ومرة أماكن يكتب عليها صراحة اسم «ملهى» ! ومرة.. ومرة.. ومرة(٢)..

وكان القصد من ذلك أهدافا كثيرة في وقت واحد.

فقد كان من بين الأهداف صرف الناس عن الصلاة - بعد أن صرفوهم عن تحكيم شريعة الله - فإذا تم ذلك فقد نُقضت عُرَى الدين كلها: «**لتُنقضنّ عُرَى هذا الدين عُرْوة عروة، فكلما نُقضت عُروة تشبّث الناس بالتى بعدها، فأوّلُهنّ نقضا الحكم، وآخرهُنّ نقضا الصلاة**»(٣) وحين

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) جدّت بعد أيام الاستعمار الأولى وسائل أخرى استخدمت كلها للإفساد، من أبرزها التليفزيون والفيديو، وذلك غير مابذل في إفساد المرأة بالذات، وتشجيعها على التبرج بكل أساليبه وفنونه، واتخاذ الصحافة النسوية ثم السينما والتليفزيون وسيلة لإغراء المرأة بمزيد من التبذل والفساد.

(٣) أخرجه أحمد والطبراني.

تُنقض هذه الأخيرة لايبقى شيء في هذه الأمة له رباط !

وكان من بين الأهداف القضاء على مابقى من روح «الجد» في الأمة. فاللهو حِمْضٌ أكّال، يرهّل النفس، ويقتل الوقت، ويمنع التوجه إلى معالي الأمور، وهو في الوقت ذاته مُغْرٍ بالمزيد، لاتشبع منه النفس إذا وَجّهتْ همّها إليه، وإنما تسعى للاستزادة منه مع «التفنن» الدائم في التغيير !

وكان من الأهداف الأساسية كذلك القضاء على مابقى من روح «الجهاد» في الأمة. فقد خبرت أوروبا روح الجهاد عند المسلمين، وعانت منها كثيرا، مغزوة وغازية.. فأما مغزوة فحين دخل المسلمون الأندلس وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية، وحين دخلوا القسطنطينية ثم توغلوا في شرق أوروبا حتى حاصروا ڤيينا. وأما غازية فحين كبّدتهُم روح الجهاد الدماء والأرواح قبل أن يستطيع الاستعمار أن يستقر في الأرض الإسلامية.

ولن يطمس روحَ الجهاد في أى أمة شيء مثل اللهو، والانغماس في الشهوات، بما يرهل من النفوس، وبما يحببها في المتاع المحرّم، وبما يصرفها عن التجمع والعزم، والصلابة والقوة، والصبر على المكاره، بقدر مايعوّدها على حياة الدنس، والرخاوة، والتهرب من بذل الجهد [١].

---

(١) انهارت فرنسا في الحرب العالمية الثانية في أسبوعين برغم كل ما كانت =

وذلك بالإضافة إلى صرف اهتمامات الناس إلى الحياة المادية والقيم المادية، فيصبح هَمّ الشاب أن يحصل على المال من أى طريق، وتصبح أمانيه محصورة في منزل أو شقة، وأثاث يؤثث به بيته، وسيارة إن استطاع، وجاه يحصل عليه بمصاهرة فلان من الناس.. تلك القيم الجاهلية التى جاء الإسلام ليُطهّر النفوس من التعلق بها، وجَعْلِهَا هَمَّ الإنسان من حياته، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، لكى يوقظ البشرية من غيّها، ويرفعها إلى المستوى اللائق بها:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(1)

لذلك كانت عجيبة من العجائب أن تتجمع تلك الأمة للجهاد الإسلامى بعدما سَرَىٰ في المسلمين ذلك الدّاء العُضَال!

* * *

= تملكه من الأسلحة. وقال بيتان - رئيس وزرائها يومئذ -: إن الإغراق في الملذات هو الذى هزم فرنسا.

(1) سورة التوبة [٢٤].

ثم كان تجمع هذه الأمة للجهاد عجيبة من باب ثالث.

فقد حرص الاستعمار ـ وهو يسعى لقتل روح الجهاد، ويعمل على إضعاف الأمة الإسلامية ـ أن يحرمها من السلاح. فلا هى ـ تحت وطأة الاستعمار ـ تملك من المال مايكفى للتسلح، ولا هى ـ حتى إن وَجَدَت المال ـ يستجاب لها حين تطلب السلاح من صانعيه، وصانعوه هم هم الذين يحتلون الأرض الإسلامية أو يسيطرون على أمورها. أما تصنيع السلاح داخل الأرض الإسلامية على يد المسلمين فتلك هى «الجريمة الكبرى» التى لايسمح للمسلمين بارتكابها، لأن صناعة السلاح هى من حق المعتدين وحدهم، وليست من حق الذين يقع عليهم العدوان! والاستعمار واقف يرقب الأحوال، لايسمح بأية مخالفة في هذا الأمر الخطير! وهو إن سمح للدولة ببعض السلاح، الذى يُمكّنها من ضبط أمنها الداخلى، ويُمكّنها في ذات الوقت من ضرب أية حركة يُخشى منها على «مصالح» الاستعمار.. فهو لايسمح به للأفراد، ولو للدفاع عن أنفسهم، إلا بتصريحات خاصة توضع دونها العقبات، ليزهد في السلاح الراغبون فيه، وينصرفوا بالتالى عن التفكير في التدريب على استخدامه ولو فى أبسط صوره!

وحين بدأ الجهاد الأفغانى لم يكن المجاهدون يملكون شيئا مما يُعتبر سلاحا، إلا بقايا من الحرب العالمية الأولى،

لعلها أُهملت من باب السخرية بها وبأصحابها ! وإلا قطعا صغيرة من الأسلحة الحديثة مما استطاعوا أن يشتروه.

لذلك كان من العجب أن تهبّ الأمة هبّتها الهائلة، وهى شبه عزلاء !

* * *

أما العجيبة الكبرى فهى أن هذه الأمة لم تقم لتنازل عدوا ضئيلا يمكن أن تحدثها نفسها بالتغلب عليه بالوسائل العادية التى تملكها، أو التى يتوقع لها أن تحصل عليها.. إنما قامت لتنازل الدب الروسى بالذات، أكبر وحوش الجاهلية المعاصرة وأشدها ضراوة ووحشية !

لقد كانت أول منازلة مع الدب - وكانت آخرها كذلك - هى منازلة المجر للاحتلال الروسى عام ١٩٥٦م.

فلقد عبث الهوى برؤوس بعض المفتونين بالشيوعية في المجر، فأرادوا لبلادهم أن تصبح جزءا من العالم الشيوعي، لتستمتع بالمزايا التى سمعوا عنها في الدعاية الشيوعية الخلابة.

ثم ذاقت المجرُ الشيوعيةَ في عالم الواقع، بعد أن ظلت تحلم بها في عالم الخيال.

وكانت التجربة مُرّة مُرّة إلى حدٍّ لم تُطِق نفوس المَجَريّين احتماله !

كانت المجر تعتبر من الدول الصغيرة الغنية في أوروبا، وكانت متقدمة في الصناعة، وكانت تتمتع بقسطٍ ما من الحرية، إلا يكن كما هو موجود في «الديمقراطيات» الكبرى، فهو كافٍ على أى حال لتسيير عجلة الحياة.. فوسوست شياطين الشيوعية إلى الجماهير أن حالها لايُرْضي، وأن الملكية الفردية داء قتّال، وأنه لابد من إزالة فوارق الطبقات، وأن العمال لابد أن يكونوا هم المالكين بدلا من الرأسماليين.

ودخلت المجر في القفص.. فعرفت حقيقة الشيوعية.

وثارت نفوس المجريين، وحنّوا إلى الحرية التى فقدوها، والبحبوحة التى كانوا يعيشون فيها[1].. وهنا دَهَمَهُم الدب الروسى بفظاظته ووحشيته، فافترسهم افتراسا، ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تُحدّثه نفسه بالخروج من القفص بعد أن دخل فيه !

لقد كانت ثورة المجر أمراً خطيراً بالفعل على الشيوعية.. الشيوعية الدولة، والشيوعية الدعوة.. ولو نجحت تلك الثورة

---

(١) ليس بنا أن ندافع عن الأوضاع الرأسمالية في أوروبا أو غيرها من بلاد الأرض.. فالرأسمالية نظام جاهلى ظالم، لأنه لا يحكم بما أنزل الله.. ولكن العلاج ليس هو الشيوعية ! فهي نظام جاهلى أشد ظلما، ينطبق عليه قول الشاعر العربى :

المتسجير بعمرو عند كربته ∴ كالمستجير من الرمضاء بالنار !

في حينها لتغيرت الظروف في أوروبا، وربما في كثير من بلاد «العالم الثالث» التى وقعت ـ أو أُوقعت ـ في حبائل الشيوعية.

وكان من المنطقى أن ينزعج الدب انزعاجا شديدا من ثورة المجر وأن يسعى إلى إخمادها.. ولكن أى وحشية تلك التى استخدمت لإخماد الثورة ؟! لقد روت الصحف يومئذ خبر الدبابات الضخمة التى يبلغ ارتفاعها ثلاثة طوابق، والتى هدمت البيوت على أهلها فدفنتهم أحياء تحت التراب!

يالها من وحشية خشنة، لايُقْدِم عليها حتى الوحوش[1]!

لقد كانت المجر شعبا كاملا قائما في الأرض، وليس قطيعا من الأغنام. وإذا كانوا قد دخلوا الشيوعية طواعية فقد ذاقوها فلم يسيغوا مرارتها.. فلفظوها.. أفمن أجل هذا يُقتلون هذه القِتلة البشعة التى يعفّ عنها كثير من الوحوش ؟!

ماذا ياترى لو كانت الدولة العثمانية ـ مثلا ـ قد استخدمت تلك الوسائل أو مثلها لإبقاء البلقان تحت سيطرتها، ضد مؤامرات الدول الأوروبية التى تحيكها

---

(١) تفترس الوحوش لتأكل، فإذا شبعت كفّت عن القتل.. ولاتمارس القتل لمجرد الانتقام!.

لتقويض دولة الإسلام ؟! كم كان يشنع عليها بكل وسائل التشنيع ؟!

وأيّاً كان الأمر، فقد كان الدرس عنيفا بحيث لم يتكرر ولم يفكر أحد في الخروج من قبضة الدب - إذا وقع فيها - مهما يكن حجمه، ومهما تكن إمكاناته.

لذلك كان أعجب العجب أن تُقْدِمَ أمة شبه عزلاء على تحدى الدب المتوحش وهو في سورة الهياج !

❊ ❊ ❊

كيف حدثت تلك العجائب كلها، فدفعت هذه الأمة إلى الجهاد.. الجهاد الإسلامى بالذات ؟

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[1]

وبعض الناس يتوقف عند هذه النقطة ليُلقي ظلالا على الجهاد الأفغانى كله.. من إحدى زاويتين مختلفين، أو من كلتا الزاويتين !

يقول بعضهم : كيف نَصِفُهم بالإيمان، ونَصِفُ حركتهم بأنها جهاد إسلامى، فضلا عن أن نُضْفى على هذا الجهاد مايُضْفَى عليه من الصفات، وأهل أفغانستان يعلّقون التمائم على صدورهم، ويؤمنون بالأضرحة والأولياء ؟!

---

(١) سورة الكهف [١٢ ـ ١٣].

ويقول بعضهم الآخر : إنها كلها لعبة أمريكية لاينبغى أن تخدعنا ! فقد سبق لروسيا أن قدمت لأمريكا صفعة قاسية في فيتنام، واليوم ترد أمريكا الصفعة لروسيا في أفغانستان !

والنظر إلى هذا الجهاد الفذّ، النادر المثال في التاريخ، من خلال هذه الظلال، يفسد الرؤية، ويغشّى على الحقيقة، ويحتاج إلى توضيح.

فوجود هذا الانحراف العقدى عند الشعب الأفغانى ـ ككل الشعوب الإسلامية اليوم ـ حقيقة ليس فيها شك.

فما الرؤية الصحيحة لكلا الأمرين ؟

فأما قيادات الجهاد الأفغانى، فينبغى ـ شهادة الله ـ أن نقول إننا ماعلمنا عليهم من سوء في هذا الشأن ـ ولانزكيهم على الله ـ وفيهم من هو دارس للشريعة، متفقه في الدين. وأما الجنود المقاتلون ففيهم دون شك من تُوجد فيه الانحرافات المشار إليها، من تمائم، وتبرّك بالأضرحة والأولياء.. إلخ.

فما الوجه الشرعى للقضية ؟

لكى نقرر الإجابة علينا أن نسأل سؤالا آخر: ماالبديل من الجهاد ؟ نترك الشيوعية الكافرة تستولى على البلاد، وتقتل جذور الإسلام من خلال مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وباستخدام الحديد والنار، كما فعلت بمسلمى

روسيا، وكما فعلت الصين الشيوعية بمسلميها ؟

وأى الأمرين أشد ضرراً بالإسلام: أن نترك الشيوعية تفعل فعلها لتحاول محو الإسلام محواً، أم نستخدم أولئك الجنود، المخلصين لقضية «أفغانستان المسلمة» التى تحكمها شريعة الله، ولاتحكمها الشيوعية الكافرة، مع مافيهم من انحراف ناشئ عن الجهل، مبثوث فيهم منذ قرون، ولايمكن إزالته في جيل واحد مهما بُذل فيه من الجهد، لأن جذوره ضاربة في التاريخ ؟

أى الضررين أشد ؟ وماالقاعدة الشرعية التى تتبع في مثل هذه الأحوال ؟

القاعدة المعروفة - المتفق عليها - هى جواز اتقاء الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، بل وجوب ذلك حين يصل الضرر الأكبر إلى حد تعريض الفرد أو الجماعة للهلاك.. وهل هناك هلاك أكبر من محو الإيمان بالله جملة، وجعل الكفر الصريح دينا رسميا للعباد ؟!

وقد اختارت قيادات الجهاد أن تخوض المعركة ضد الكفر. وكانت نتيجة ذلك الاختيار هى هذا الجهاد الفذ، الذى يندر مثاله في التاريخ !

أما أمريكا، وإمدادها المجاهدين ببعض السلاح - بطريق مباشر أو غير مباشر - فقد كانت له دون شك أهدافه الأمريكية الخالصة.

لقد أمدت أمريكا المجاهدين ببعض السلاح، **ولكن لالينتصروا** ! إنما كانت تمدهم به لهدفين، كلاهما يحقق مصلحة لها. الأول: هو إجهاد روسيا بإطالة مدة القتال إلى أقصى درجة ممكنة (سواء كان ذلك ردا على الصفعة الروسية في فيتنام، أو لأى سبب آخر) والثاني: هو إتاحة الفرصة لروسيا - في الوقت ذاته - لتقتيل أكبر عدد ممكن من المسلمين المجاهدين، ليستريح الغريمان معاً من العدو المشترك، على طريقة المَثَل القائل: أنا وأخى على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب ! والغريب الذى يريد الطرفان معاً قتله. هو الإسلام !

من أجل ذلك أمدت أمريكا المجاهدين بالسلاح الذى أمدتهم به، ولم تكن تتصور قط أن ينتصروا بذلك السلاح، لأن كل الحسابات «البشرية» تقول إن هذا مستحيل !

ولقد فوجئت أمريكا - مفاجأة غير سارة - بذلك النصر، كما صرح أمريكى مشتغل بالأمور السياسية لجريدة الشرق الأوسط (عدد ٣٨٤١ - يوم الأحد أول ذى القعدة ١٤٠٩هـ) إذ قال في صراحة: لقد فوجئنا بانتصار الأفغان !

نعم ! كانت مفاجأة لأمريكا ! فما من أجل النصر أمدّتهم بما أمدّتهم به من سلاح ! وإنما ليموتوا.. ليفنوا في أثناء القتال الطويل.. ثم يفرك الغريمان معاً كفيهما سروراً

بالقضاء على العدو الأصيل .

وقد كان من الأسباب «المنظورة» لهذا النصر ـ ولندع الأسباب غير المنظورة لحديث آخر ـ أن المجاهدين الأفغان قد غنموا من السلاح الروسى ـ الذى تركه الجنود الروس الهاربون المفزوعون أمام صمود المجاهدين وصلابتهم ـ ماصاروا يستخدمونه في قتالهم ضد الروس، بكميات غير قليلة.. ولم يكن ذلك في حساب أحد من الطرفين المتنافسين، لا الروس ولا الأمريكان !

وكانت النتيجة التى ترتبت على هذا النصر غير المنظور ـ الذى اضطر الحكومة الروسية إلى سحب قواتها من الجبهة ـ أن أمريكا ذاتها تقف اليوم ضد الجهاد الأفغانى، وتضع أمامه العراقيل من وراء الستار، لكى لايصل إلى نتيجته الحاسمة التى تُمكّن المجاهدين من إقامة الدولة الأفغانية المسلمة ! وتقف اليوم **كل** الكتل المعادية، تحاول أن تسد الطريق.

❊ ❊ ❊

ولنعد إلى الجهاد الأفغانى ذاته نحاول أن نتعرف على بعض جوانبه..

يقول الدعاة الأفغان إنهم ظلوا عامين كاملين في أول الأمر يدعون إلى الجهاد فلا يستجيب لهم إلا جماعات

صغيرة من الشعب، حتى إذا اشتعلت الشعلة ـ بعد دخول الجيش الكافر بنفسه في المعركة ـ فقد امتدّ لهيبها حتى شمل الشعب كله.. وكان هذا مولداً جديداً للشعب الأفغانى، بل نرجو أن يكون مولداً جديداً للأمة الإسلامية كلها بإذن الله.

نعم.. إنه مولد جديد يُذكّر بمولد الأمة الأولى، ويعيد أمجادها..

والذين رأوا الروح التى دبت في الشباب الأفغانى.. والذين رأوا معسكرات التدريب.. والذين رأوا كيف يتقاطر الأطفال الصغار إلى المعسكرات، فإذا قيل لهم أنتم مازلتم صغارا فاقضوا هذا العام في المدارس ثم عودوا إلينا في العام القادم خرجوا باكين لحرمانهم من شرف الجهاد.

الذين رأوا هذه المشاهد يعلمون جيدا كيف كان الجهاد ميلادا جديدا للشعب الأفغانى.

إنه ما من شعب ذاق من الويلات ماذاق ذلك الشعب، لأنه ما من شعب ذاق مثل هذه الويلات ثم استمر في القتال ! لا سنة ولا سنتين.. ولكن عشر سنوات !

استسلمت المجر للدب الروسى بعد أسابيع قليلة من عملية التدمير.

ولقد كانت عملية التدمير وحشية بما فيه الكفاية، ولكنها لاتكاد تذكر بجانب الوحشية التى ارتكبها المجرمون في أفغانستان.

كل الأسلحة المحرمة استُخدمت.. كل فنون القتل والقتال استخدمت.. حتى التمثيل بالجثث وتشويهها حقدا وانتقاما استخدم!

لقد جن جنون الروس حين رأوا هذا الشعب الباسل يستبسل في القتال، ولايبالى مايصيبه من ألوان الدمار التى يصُبّها العدو فوق رأسه: من القتل الجماعى للمدنيين العُزّل والنساء والأطفال. من حرْق قرى بأكملها من الجو بالقنابل المحرقة وقنابل «النابالم» المحرمة دوليا. من حرق الأرض بالصواريخ وتحويلها إلى أرض صَلْدة لاتنبت، بعد حرق كل ماعليها من المحاصيل والغلال.. ولكن حقدهم المجنون اشتعل أكثر حين رأوا جثث الشهداء لاتتعفن! فانتقموا - من الموتى! - بصبّ السوائل الكيماوية التى تأكل الجثث وتشوهها!

ياالوحشية الدب! وياالحقارته أيضا! حتى الجثث تثير فيه هذا الحقد المجنون؟! وتدفعه إلى هذا الإجرام الخسيس؟!

لقد سمعنا - حتى في الجاهليات - عن قواد عسكريين يقدرون بسالة العدو وشجاعته - تقديرا للروح العسكرية في ذاتها - فإذا انهزم العدو في النهاية أمامهم - بعد قتال باسل - انحنوا احتراما لجثث القتلى، وصافحوا أسراهم الذين استسلموا لهم بعد استنفاد كل طاقتهم.

أما هذه الشيوعية الكافرة، في تلك الأمة الجافية، فلا تعرف حتى ماتعرفه الجاهليات الأخرى من الأعراف «الإنسانيّة» فقد قضت الشيوعية فيها على كل مقومات «الإنسان».

* * *

ما من شعب تحمّل كلّ هذه الويلات ثم استمر يقاتل !

مليون ونصف مليون من القتلى من الشعب الأعزل، غير من قُتل في الميدان من الشهداء.

خمسة ملايين من الشيوخ والنساء والأطفال بلا مأوى.. مشردين في الخيام خارج أوطانهم..

أرض محترقة لاتصلح للإنبات.

دمار كامل للمحاصيل الغذائية، وللديار، والأموال.

كيف صمد الشعب الأفغانى أمام كل هذه الويلات ؟!

إنه الإسلام ! إنها روح الجهاد في هذا الدين !

والمجاهدون أنفسهم كيف صمدوا ؟

لا سلاح يكافىء سلاح الأعداء..

لا أطباء يداوون الجرحى ويسعفونهم بالعلاج، إلا بضعة أفراد في كل جبهة لايتناسب عددهم مع العدد المطلوب..

لا دواء.. إلا كميات متناثرة لاتصل ـ مع قلتها ـ إلى كل الجبهات.

لا غذاء.. إلا حفنة أرز يتناولها المجاهد مرة كل أربع

وعشرين ساعة، ليعيش عليها يوما كاملا يقاتل فيه الأعداء.

لا راحة.. فالعدو ـ بعدده المتفوق، وطائراته المتقدمة ـ لايكف عن مطاردة المجاهدين حتى داخل الكهوف والمغارات بقنابل الدخان الخانقة، وقنابل الغازات السامة، وكل وسائل التنكيل والدمار.

كيف حدثت عجيبة الصمود إزاء هذه الأخطار؟

إنه الإسلام! إنها روح الجهاد في هذا الدين!

إنها الجنة التى يهفو إليها المجاهدون في سبيل الله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

* * *

وإذا كانت هذه قصة الصمود، فقصة الانتصار أروع!

ولست أتحدث عن النتيجة النهائية للمعركة، فهذه علمها عند الله، وهى غيب لم يكشف الله عنه بعد. إنما أتحدث عما

---

(١) سورة التوبة [١١١].

تم بالفعل من انسحاب القوات الروسية من أفغانستان.

ويحلو لبعض الناس أن يقولوا : إن الروس لم ينسحبوا ! فمازالوا يزودون النظام العميل في أفغانستان بالسلاح ليقف في وجه الجهاد الأفغاني.. إنما هى لعبة خبيثة لجعل أفغانستان «فيتنام» أخرى، يتقاتل فيها الأفغان مع الأفغان، والروس في الخارج يتفرجون !

وهذا القول مردود على أصحابه..

فلماذا دخل الروس من مبدأ الأمر ؟

إنما دخلوا ليسندوا النظام العميل بأنفسهم حين رأوا أنه لن يستطيع الصمود بنفسه أمام الجهاد الأفغانى، ودخلوا ليسحقوا الجهاد الأفغانى بأنفسهم باعتباره تمردا مباشرا على سلطانهم، يجب أن يسحق على الطريقة المجرية السابقة، تنكيلا بالمتمردين من جانب، وتحذيرا من جانب آخر لمن تحدّثه نفسه بالتمرد في أية بقعة من بقاع السيطرة الروسية.

فهل حقق الروس أهدافهم ؟!

من المكابرة الظالمة أن يقول أى إنسان: نعم ! حتى وإن سندوا نظامهم العميل وأمدوه بأى قدر من السلاح يتصوره الخيال !

وستبقى تلك الحقيقة الفذة أبد الدهر: أن المجاهدين الأفغان، بالسلاح الضئيل الذي يملكونه، قد أكرهوا الروس

على الانسحاب، لأول مرة منذ أقاموا نظامهم الشيوعى(١)، وتوسعوا به في أرجاء الأرض.

إنها حقيقة ضخمة لن يستطيع أحد المكابرة فيها **أيا كانت النتيجة النهائية للمعركة**. التى نرجو للمجاهدين فيها الخير كله. وللمعتدين كل الخزى.

انسحبت روسيا أمام الجهاد الأفغانى.. وحين نقول هذه العبارة، وهى واقع مشهود، فلسنا نعنى فقط أن دولة عظمى قد اضطرت إلى الانسحاب أمام صمود شعب أعزل، أو شبه أعزل، إنما نعنى ما هو أكبر من ذلك.. نعنى على وجه التحديد: أن أكبر قوة وحشية في التاريخ الحديث وجدت نفسها مضطرة أن تسحب جيوشها أمام جهاد دولة صغيرة.. **مؤمنة**.

إنه معنى أضخم بكثير من معانى النصر والهزيمة.

إنه ينتقل بنا، وبالقضية كلها، إلى عالم أوسع من عالم المعارك الحربية، ومايحدث فيها من هزيمة ونصر. إنها قضية من قضايا التاريخ البشرى الكبرى.. قضية الكفر والإيمان!

* * *

---

(١) قام النظام الشيوعى في روسيا في سنة ١٩١٧م.

كيف انتصر المجاهدون الأفغان أمام أكبر زحف وحشي في التاريخ الحديث ؟!

كل مايمكن أن نسوقه من الأسباب «المنظورة» لايكفي للتفسير.

ولابد لنا أن نرجع - مع الأسباب المنظورة - إلى الأسباب «غير المنظورة» :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(١).

وحين نتحدث عن الأسباب «غير المنظورة» يضع بعض المتشككين أيديهم على قلوبهم، وبعضهم الآخر يفتح فمه ساخرا: إننا سندخل إذن في عالم الأساطير !

ونسارع فنقول لهؤلاء وهؤلاء وغيرهم: إننا لانتحدث عن الأساطير.

إنما نتحدث عن واقع نسيَه كثير من الناس حين نسوا كثيرا من حقائق الإسلام وحقائق الإيمان وحقائق الجهاد: أن الله سبحانه وتعالى يؤيد المؤمنين بنصره حين يلجأون إليه صادقين، ويتوكلون عليه صادقين، بعد أن يتخذوا كل مافى أيديهم من الأسباب صادقين.

---

(١) سورة الأحزاب [٩].

هذا واقع.. وليس أساطير.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[١].

ومن شاء ألا يصدق فلا يصدق ! وهو الخاسر في النهاية ! وليس أقل الخسارة ألا يتذوق طعم الرحمة الربانية وهى تتنزل على عباده المؤمنين.

إن عدوى «الواقعية العلمية التجريبية» التى تحدد العالم كله والعلم كله، و «المعرفة» كلها بما تدركه الحواس، ومايمكن أن يخضع للتجربة المعملية، إن هذه العدوى قد انتقلت إلينا مع الغزو الفكرى، مع غيرها من اتجاهات الجاهلية المعاصرة، التى تحصر عالم الإنسان في دائرة «القرد الدارويني المتطور»، وتأبى عليه كرامة الإنسان، وسعة آفاقه، وسعة الرحمة الربانية التى يتفضل الله بها عليه حين يستقيم على صراطه المستقيم.

أما الناجون من هذه العدوى الجاهلية، فإنهم لايستكثرون على الإنسان المؤمن أن يفيض الله عليه من رحمته بما يشاء سبحانه، حين يعلم من قلبه صدق الإيمان،

---

(١) سورة فصلت [٣٠ ـ ٣١].

وصدق التوجه إليه، وصدق النية، الذي يقتضى اتخاذ كل مافى وسع الإنسان من الأسباب.

إنهم يؤمنون بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾(٢)

وقوله تعالى. ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(٣)

يؤمنون به لأن الله أخبر به في كتابه المنزّل، ولأنه واقع

---

(١) سورة آل عمران [١٢٣ ـ ١٢٥].
(٢) سورة الأحزاب [٩].
(٣) سورة الأنفال [١٢].

تاريخى شهده جيل من المؤمنين بأنفسهم، ورونه من بعدهم أجيال من المؤمنين.

وهم مع ذلك ليسوا من المُخرّفين، وليسوا من القاعدين المتواكلين..

إنهم يعلمون جيدا أن نصر الله لايتنزل على القاعدين المتواكلين، لأن له سُننا ربانية تحكمه، والسُنّة الأولى من سُننه هى قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(1).

ومنها قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ.. ﴾(2).

ومنها ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ.. ﴾(3).

وهم في الوقت ذاته لايتعلّقون بالخوارق، وإن كانوا لايغلقون قلوبهم وعقولهم عن رحمة الله.

ولقد تواترت عن الجهاد الأفغانى قصص كثيرة، يبدو كثير منها كأنه أساطير.. ولن نخوض في ذكر أى منها مهما تواترت، ومهما عرف عن رواتها من الصدق في الحديث.

---

(1) سورة القتال [7].
(2) سورة التوبة [14 ـ 15].
(3) سورة النساء [123].

ولكن تبقى بعد ذلك كله حقيقة واقعة.. إن كل مايملكه المجاهدون من الأسباب «المنظورة» لايكفى لتحقيق النصر الذى أحرزوه بالفعل، حين اضطروا قوات أكبر قوة وحشية في التاريخ الحديث إلى الانسحاب.

إنما يفهم هذا النصر جيدا حين تضاف إلى الأسباب المنظورة الأسباب الأخرى غير المنظورة، التى يتفضل الله بها على المؤمنين الصادقين من عباده، فتكتمل العدة التى يتم بها نصر الله.

وإن الذى يخشاه بعض المخلصين حين نتحدث عن الأسباب غير المنظورة أن يتواكل الناس ولايتخذوا الأسباب.

ولكن الذى نريد أن نؤكده للناس هو حقيقة العون الربانى الذى يتفضل الله به على المؤمنين حين يتخذون الأسباب ثم يتوجهون إليه طالبين عونه ورضاه.

إن هذا العون الربانى **سُنّة جارية** تجرى كلما وُجدت أسبابها.. وليست من الخوارق التى انتهت مع الأنبياء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾(١).

وواضح من الآية أنها **سنة جارية**، لا هى من الخوارق، ولا هى ـ حاشا لله ـ من الأساطير !.

والذى تم في أفغانستان على يد المجاهدين هو هذا العون الربانى الفياض، وإن كان من رحمته قد أفاض كثيرا.. لأمر يُراد(٢).

* * *

إن الذى أفزع الروس وألجأهم أخيرا إلى الانسحاب لم يكن شيئا عاديا مما يحدث كل يوم.. وإن لم يكن في الوقت ذاته خارقة من الخوارق التى لاتقع إلا مع الأنبياء !

إن الذى أفزعهم وألجأهم إلى الانسحاب شىء واضح محدد: أنهم ظلوا يضربون ويضربون ويضربون، ثم يجدون

---

(١) سورة الحج [٣٨ ـ ٤١].

(٢) نتحدث فيما بعد عن نتائج الجهاد الأفغانى ودلالاته.

عدوَّهم ثابتا لايتراجع، بل على العكس من ذلك يتقدم بخطى حثيثة، مهما أصابه من القتل، ومهما أصابه من الجراح !

والذى أفزعهم أكثر معرفتهم اليقينية بما بين أيدى المجاهدين من السلاح، وأنه لايقاس بحال من الأحوال بما يملكون هم من السلاح !

ثم إن الذى أفزعهم أكثر من ذلك كله، معرفتهم بأن هذا هو كل مايملكون، ومع ذلك فهم لايقدرون ! يملكون هذا القدر كله من أدوات التدمير، ومع ذلك فإنهم لايقدرون عن طريقه على تدمير هذا الصمود العجيب الذى واجههم به المجاهدون ! فهم إذاً أمام أمر لاقِبَل لهم به.. أمر يملكه الأفغان وحدهم ولايملكونه هم !

عند ذلك أصابهم الخذلان.

والذى أجبر الحكومة الروسية على سحب جنودها من الميدان هو خشيتها من تفشى روح الخذلان في الجيش كله، فأسرعت بسحب قواتها قبل أن يتحقق للمجاهدين النصر الكامل، فلا يعود للجيش الروسى بعدها كيان !

وهذا الذى أخبر الله سبحانه أنه يحدث حين يلتقى الكفر والإيمان:

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

ولكنه سبحانه وتعالى لايلقى في قلوب الذين كفروا الرعب حتى يُوجد المؤمنون الذين وهبوا أنفسهم لله، فتجرى بهم حينئذ سُنة الله:

﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ . . ﴾(٢).

وتمضى السّنّة دائما حين يلتقى الكفر بحقيقة الإيمان، فيتخاذل الكفر أمام الإيمان.

* * *

إن أروع مافى الجهاد الأفغانى أنه تجسيد لتلك الحقيقة: حقيقة المواجهة بين الإيمان والكفر.

إنها حقيقة عجيبة نسيها الناس أو كادوا ينسونها حين عاشوا بعيدا عن روح الجهاد.. فبهتت المعانى القرآنية في حسّهم، وبهتت في ذاكرتهم أحداث التاريخ.

كيف تم النصر في معركة بدر الكبرى، التى كتب الله بها مسيرة هذه الأمة في التاريخ؟

كيف تم النصر على المرتدين في عهد أبي بكر رضى الله عنه؟

---

(١) سورة آل عمران [١٥١].

(٢) سورة القتال [٤].

كيف تم فتح فارس ؟

كيف فُتحت الهند ؟

كيف انتصر المسلمون على الصليبيين أيام صلاح الدين بعد هزائمهم المتكررة ؟

كيف انتصروا على التتار في واقعة «وا إسلاماه» ؟![١]

كيف اقتحم الفاتح القسطنطينية ؟

إنها كلها حقيقة واحدة.. تتم حين يلتقى الكفر مع حقيقة الإيمان.

وتلك الأمجاد التى نسيها المسلمون، أو تحولت في حسهم إلى ذكريات باهتة كما يتحول الحبر القديم على الأوراق، جسّدها الجهاد الأفغانى فأعادها جذعة.. أعادها حية نابضة.

ورأى الناس أمام أعينهم - أو سمعوا سمعا كالعيان - كيف تثبت الفئة القليلة المؤمنة لأضعاف أضعافها من الكفار، ثم تطاردهم فيهربون أمامها مذعورين !

ورأوا وسمعوا كيف تثبت فئة قليلة مؤمنة، والقنابل تنهمر عليها من السماء كالمطر، وهى رابطة الجأش، لاتفزع، ولاتجبُن، ولاتهرب.. تقول في أعماقها :

---

(١) واقعة عين جالوت.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ورأوا وسمعوا كيف يُقْتَل الشهيد، فيدفنه زملاؤه في احتفال مهيب، يقرؤون القرآن، ويرتلون الأناشيد، وهم مستمرون في عملهم الجهادى، لايتوقفون لِيأْسَوْا، ولا لِيَيْأَسُوا، ولا ليتحسّروا، يملأ قلوبهم اليقين :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

ثم رأوا وسمعوا كيف يُطلِق أحدهم القذيفة فإذا هى أبعد أثرا مما ظن فيها صاحبُها، لأن الله قدر لها أن تبلغ مابلغت : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة [٥١].

(٢) سورة آل عمران [١٦٩

(٣) سورة الأنفال [١٧].

ورأوا وسمعوا كيف تكون الأُمة التى تُجاهد، وتُبتلىٰ فتصبر، وتستمر على الطريق.

أُمّة حيّة.. أُمّة كريمة.. لا كالأمم التى تستنيم للذّلّ، وتدفع ضريبة الذل وهى خانعة خوفا من الموت، فتموت في كل موقف وفى كل لحظة، وهى تتوهّم أنها مازالت على قيد الحياة !

* * *

سيظل الجهاد الأفغانى صفحة ناصعة في كتاب التاريخ.

وسيظل التاريخ يذكر - على مدى أجيال - كيف استطاعت أمة عزلاء - أو شبه عزلاء - أن تجبر أكبر قوة وحشية في عصرها على الانسحاب من أرضها خوفا من الفضيحة الكبرى على رؤوس الأشهاد.

ولكن الذى ينبغى أن يذكره المسلمون خاصة هو حقيقة المواجهة بين الإيمان والكفر.. وكيف يُحيي الإيمان الأُمّة، ويكتب لها الوجود، ويكتب لها الخلود.. حين يكون جهادا في عالم الواقع، لا مجرد كلمة تُنطق، ولا وجدانا مُستسرّاً في الضمير !

دروس من الجهاد الأفغاني

«الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»[1].

والجهاد الأفغانى إنما هو حلقة من حلقات ذلك الجهاد الدائب الذى تخوضه الأمة الإسلامية مع أعداء لا إله إلا الله.

وماندرى بعد إلى أى شىء تنتهى هذه الحلقة، التى نرجو من ورائها كل الخير، ولكنها ـ من قبل ومن بعد ـ حلقة على الطريق، لا هى الأولى.. ولن تكون الأخيرة، مادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.

ولكن عدم وصولها بَعْد إلى نهايتها، التي نرجو لها كل الخير، لايمنعنا من تقويم ماتمّ منها حتى اليوم، واستخلاص دروسه وعِبَره، ودلالته بالنسبة للحاضر وبالنسبة للمستقبل.. وإنها لدروس شتى، ودلالات كُثْر.

* * *

الدرس الأول ـ الذى أشرنا إليه أكثر من مرة ـ هو قيمة

(١) أخرجه الشيخان.

الجهاد في حياة الأمة.

إنه لابديل لهذه الأمة من الجهاد.

والحقيقة أنه ما من أمة في الأرض - مؤمنة أو كافرة - تستطيع أن تستغنى عن الجهاد. ولكن الأمة المؤمنة هى الأشد حاجة إليه، بالنسبة لاختصاصها برسالة وأهداف خاصة غير بقية الأمم، وبالنسبة لتكتّل الجاهلية في الأرض كلها، وفي التاريخ كله، ضد هذه الرسالة وهذه الأهداف.

والقاعدة التى قررها الله في الأرض أنه لابد أن تقوم الأمة المؤمنة بدفع شرور الجاهلية، وإلا فسدت الأرض:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (١)

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة [٢٥١].

(٢) سورة الحج [٤٠].

(٣) سورة الأنفال [٣٩].

والذى يبدو لنا واضحا من خلال الحقبة الأخيرة من حياة الأمة الإسلامية، أنه بقدر ما كان الإسلام يوصى هذه الأمة بالجهاد، والمداومة عليه، وعدم إهماله، كان حرص الاستعمار الصليبى الصهيونى على صرف الأمة عنه، وتلهيتها بشتى وسائل التلهية لكى لاتتجه نحوه، ولاتلتفت إليه.

والعِبْرَة الأولى للجهاد الأفغانى أنه عودة إلى النبع الأصيل الذى كانت الأمة قد انصرفت عنه، فأصابها ما أصابها من الهوان والذل.

وهذه العودة ـ بهذه الصورة الباهرة ـ بشيرٌ بانتهاء الغفلة التى أصابت الأمة فصرفتها عن نبضها الطبيعى، وإيقاظٌ للأمة كلها.. أن هذا هو الطريق.. هذا هو الطريق.

* * *

مما يُكتَب للجهاد الأفغانى كذلك، أنه كَسَر حاجز الرهبة من الوحوش الضارية التى تسمًّى نفسها «الدول العظمى» وتخفى وراء هذه الهالة كل طغيانها وظلمها وجبروتها.. كأنما «العَظَمة» قرين الظلم والطغيان والجبروت.

حقا، لقد كان في كل عهد من عهود التاريخ جبارون يعيثون فسادا في الأرض، بسبب امتلاكهم أسباب القوة، وكانت القوة دائما، في كل جاهليات التاريخ، هى الوسيلة المؤدية إلى الطغيان :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾(١).

ولكن حجم الطغيان كان محدودا على أى حال بما تستطيع وسائل تلك الأيام أن تصل إليه. فلما تقدم العلم، وتقدمت وسائل التكنولوجيا، وزادت وسائل التدمير ومدى فاعليتها، زاد حجم الطغيان، واتخذ صورة عالمية لاتكتفى بما جاور من الأرض، ولكن تمتد بقدر ماتُمِدّها وسائلها. وتَركَّز الطغيان فيما يسمى «الدول العظمى» وبصفة خاصة في الدولتين ذواتى القوة الساحقة: روسيا وأمريكا.

ومضت هاتان الدولتان كقُطّاع الطُّرُق، كل دولة تلتهم ماتستطيع الْتهامه من الفرائس الضعيفة التى لاتستطيع حماية نفسها من الوحوش. ولم تعد أى منهما تستحى أن تلتهم فريستها علانية دون مواربة.. ففى الغاب لايستحى وحش من التهام فريسته.. إنما قد يتنازع اثنان منها على فريسة واحدة، ويشتجر بينهما الخلاف وتدور بينهما الحرب..

ومن أجل «تخفيف حدة التوتر» بين الوحشين الكبيرين - بعد عدة منازعات على بعض الفرائس - اتفق الوحشان «العظيمان» على تقسيم «مناطق النفوذ» بينهما، بحيث يكون لكل منهما دائرة يفترس من يشاء فيها دون تدخل من

---

(١) سورة العلق [٦ - ٧].

الآخر.. وإن بقيت رغم ذلك مناطق لم يستطع الوحشان أن يتفقا بشأنها اتفاقا حاسما، فصار كل وحش يحاول التسلل إليها في غفلة من الآخر إن استطاع !

وكان معظم الضحايا - بحكم الأمر الواقع - من البلاد الإسلامية !

فمنذ ضَعُف العالم الإسلامى - بسبب انحرافاته المستمرة عن حقيقة الإيمان، وتفريطه في المنهج الربانى، وبالذات منذ انهارت الدولة الحارسة التى كانت تُفزع بقوّتها الوحوش، وتصدّهم عن حمى الإسلام[1] - منذ ذلك الحين تحركت أحقاد الصليبية الدفينة، وسال لعابها لالتهام العالم الإسلامى (تساندها اليهودية العالمية لحسابها الخاص) وتسابقت دول أوروبا لاحتلال الأرض الإسلامية، وإجلاء أهلها عن الإسلام : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[2] ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[3]

---

(١) الدولة العثمانية. واقرأ في كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» (تعريب محب الدين الخطيب) قول أحد المنصّرين: إن أوروبا كانت تفزع من الرجل المريض (الدولة العثمانية) - وهو مريض - لأن وراءه ثلاثمائة مليون مستعدون للجهاد بإشارة من يده !

(٢) سورة البقرة [٢١٧].	(٣) سورة البقرة [١٠٩].

وتحقق النذير الذي أنذر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّته قبل أربعة عشر قرنا :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[١].

وإلى ماقَبْل الحرب الكبرى الثانية كانت بريطانيا وفرنسا تتـوليان كِبْرَ الطغيان في العالم الإسلامى، وإن كانتا قد تركتـا لصغـار الوحـوش من الذئاب والثعالب أنصبة غير قليلة[٢]. فلمـا صُفّيت فرنسـا وبـريـطانيـا خلال الحـرب العالمية، برز الوحشان الحاليان: أمريكا وروسيا، واستأثرا بالصيد وحدهما دون صغار الوحوش. بل إنهما حرّضا كثيرا من الضحايا فيما يسمى «العالم الثالث» أن «تتحرر» ! وكان المقصود بذلك أن تخرج من قبضة صغار الوحوش ليلتهمها الوحشان الكبيران وحدهما دون مضايقة من الصغار المُتطفّلين !

وهكـذا انتقـل العالم الإسلامى من السيّد القديم إلى

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) كبلجيكا وهولندا وأسبانيا والبرتغال.. الخ.

السيِّد الجديد، أو بعبارة أدق: من السادة القدامى المتفرقين إلى السيِّدْين الجديدْين، حسب خريطة التقسيم التى استقر عليها الاتفاق بين الوحشيْن في نهاية الأمر.

ولُعبت ألاعيبُ جديدة في عالم السياسة[١]، صُوِّرَ فيها عملاء «الدولتين العُظميين !» الذين يقدمون بلادهم للافتراس، في صورة «الأبطال» «المحررين» الذين هبطوا من السماء[٢]، لإنقاذ بلادهم من الرجعية والتأخر والتخلف وماشاكل ذلك، وكانت حقيقة دورهم قتل الحركات الإسلامية في بلادهم - باسم محاربة الرجعية ! - وتقديم بلادهم للوحش صاحب السلطان - كلٌّ في دائرة نفوذه - جثة هامدة بغير روح، لأنها حين تلفِظ الإسلام تكون في الواقع قد لفَظَت الروح. وسواء كانت الفريسة معدة لهذا الوحش أو ذاك، فالشرط واحد في الحالين ! فكلا السيدين - الوحشين - يكره الإسلام، ويشترط على عميله قتله، ويكافئه على ذلك بالتأييد والتمكين لشخصه ونظامه، ويضع في خدمته كل مايملك من وسائل الدعاية والإعلان، التى تجعل منه بطلا فذّاً لا مثيل له فيما سلف من سِيَرِ الأبطال[٣].

---

(١) انظر كتاب «لعبة الأمم» لمايلز كوبلاند عضو المخابرات المركزية الأمريكية.

(٢) لأنهم ليست لهم أصول معروفة في الأرض !

(٣) على الأقل إلى أن يموت ! ثم لا بأس بعد ذلك أن تُشوّه سمعته، ويُكْشَف =

وتآمَر الوحشان فيما بينهما على إفزاع العالم الإسلامى وتيئيسه من النجاة، بما صبَّ كل منهما في دائرة نفوذه من أساليب القمع الوحشى، والتعذيب البشع، للحركات الإسلامية خاصة، التى هى مناط الأمل للواقعين تحت الطغيان. وكان المقصود ألا يفكر أحد في العودة إلى الإسلام، ولا فى اتخاذه وسيلة للتخلص من قبضة الجبّارين في الأرض، ولا في استرداد الكرامة المفقودة التى فقدها «المسلمون» يوم فقدوا الإسلام، وأن يصبح غاية مايفكر فيه الضحايا أن ينتقلوا من سيد إلى سيد.. لا أن يتحرروا من ربقة القيد ذاته.. فقد صُوِّر لهم ذلك على أنه مستحيل !

ودبَّ هذا اليأس في «المثقفين» خاصة ! ودَعَوْا علانية إلى أنه لامناص من التبعيّة لأحد الجبّارَيْن، لأن التخلص منهما معاً مستحيل ! ولم يكن ذلك مُستغرَبا من هؤلاء «المثقفين».. فقد ربّاهم الاستعمار من قبل على التّبعيّة له، وقَتَلَ فيهم أى نزعة لأن يستقلوا بذواتهم أو يَكُونُوا أنفسهم ! فلما انقضت الحرب العالمية الثانية، وقُسِّمت مناطق النفوذ، لم يَرِدْ على خاطرهم إلا الانتقال من أحد القفصين إلى الآخر، والباب بينهما مفتوح في حدود مايتفق عليه الحراس.. أما الخروج من القفصين جميعا إلى الحرية

= عن حقيقته ! بل لابأس أن يَكْشِفَ عن حقيقته لاعبُ اللعبة نفسه ! اقرأ كتاب «لاعب اللعبة» تأليف مايلز كوبلاند عضو المخابرات المركزية الأمريكية.

الحقيقية، فدُونه الفزع والرّعب والهلاك !

وحين قال الدعـاة الإسـلاميـون لابد من الرجوع إلى الإسلام، ولابد من تطبيق الشريعة الإسلامية، لأنه لا إسلام بغير تحاكم إلى ما أنزل الله، قال «المثقفون»: وماذا نصنع بروسيـا ؟ ومـاذا نصنع بأمريكا ؟ وكلتاهما ضد الإسلام، وضد تحكيم شريعة الله ؟! بل ماذا سنصنع بإسرائيل، وهي واقفة لنا بالمرصاد !

وهكـذا وقف الوحشـان - وصنيعتهما إسرائيل - سدا منيعا بين المسلمين وإسلامهم، وإن أَوْهما الناس - تكملة لِلّعْبة - أنهم مسلمون بقول لا إله إلا الله.. ولو لم يصلوا ولا يصوموا ولا يحكموا شريعة الله !

من هنا تبرز أهمية خاصة للجهاد الأفغانى، بوصفه هو الذى كسـر حاجز الرهبة - لأول مرة - من أشد الوحوش وحشية في التاريخ الحديث !

وقـد لايكـون قد دار في خلد المجاهدين وهم يبدؤون جهادهم أن ذلك سيحدث ! ولكن الله كان قد أراد !

﴿ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (١)

إن هذا الجهاد - من أجل ذلك(٢) - سيكون نقطة تحوّل في التاريخ.

---

(١) سورة الأنفال [١٧].

(٢) ومن أجل اعتبارات أخرى سَيَردُ ذكرها فيما يلى من الحديث.

وحين يقـول «المثقفـون» اليـوم - أو غيـرهم - من المنهزمين المترددين -: كيف نحقق إسلامنا، وكيف نطبق شريعـة الله ؟ ماذا نصنع بروسيا، وماذا نصنع بأمريكا ! ستكون الإجابة الواقعية الجاهزة : نفعل بروسيا كما فعل المجاهدون الأفغان[1] !

***

لقد كان الجهاد الأفغانى نقطة تحوّل في التاريخ.. لجملة اعتبارات.

الاعتبـار الأول الذى أشـرنا إليه آنفا هو كسر حاجز الرهبة من الوحوش التى تسمِّى نفسها «الدول العُظمى» !

وحقيقة؛ إن الأفغان دفعوا ثمن ذلك غاليا، وتحملوا في سبيله مالم يتحمله شعب آخر في التاريخ الحديث. ولكنه أمرٌ يستحق مايُبذل فيه من تضحيات، لأنه أمرٌ بالغ الدلالة بالنسبة لحاضر العالم الإسلامى ومستقبله، فوْق أنّه أمرٌ عالمى في آثاره.. وأمرٌ تاريخىّ.

يَرْوُون في الأمثال أن رجلا جبّاراً كان يجد مُتعته الكبرى في إرهاب البشر. وكان إذا خرج إلى الطريق يهرع الناس إلى بيـوتهم، وتُغلَق الحـوانيت، وتسكن الحـركـة، ويسود

---

(١) وتكفلت «انتفـاضة الحجارة» الفلسطينية بالرد على بقية السؤال.. فقد أزعجت الانتفاضة إسرائيل إزعاجا بالغا - ومن ورائها أمريكا - مع أنها لاتملك إلا الأحجار ! ولكنها تملك منبع القوة الحقيقى.. الإيمان !

السكون من شدة الفزع.. ثم يمضى الرجل مختالا متبخترا يقول: أنا !.. أنا !.. فلا يقف في وجهه أحد ! وفي ذات يوم قام أحد الشباب فقال للناس: لاتخافوا ولاتفزعوا إذا خرج الرجل عليكم، ولايُغلِقنّ أحدٌ حانوته، ولايُغيّرنّ أحدكم موقعه، وسَتَـرَوْن مايكـون من أمـر الرجل ! وخرج الرجل كعادته يختال ويتبختر، ويلتفت حوله يمْنة ويسْرة وهو يَصيح صيحته المعهودة: أنا !.. أنا !.. حتى إذا مر بالشاب، فاجأه الشاب بلطمـة قوية على وجهه أذهلته.. فلما أفاق من ذهوله قال للشاب: وأنت أيضا !

كم تسـاوى هذه اللطمة القوية على وجه الجبار ؟! لقد غيـرت «الواقـع» كله بالنسبة لأهل الحى، ليس فقط لأنها أمّنتْهُم على أنفسهم، ولكن ـ أهم من ذلك ـ لأنها كسرت في نفوسهم حاجز الخوف.

وكم يسـاوى ـ على هذا الاعتبـار ـ الجهاد الأفغانى، الذى كسر في نفوس المجاهدين حاجز الرهبة من «الدول العـظمـى»، بصمـوده الرائـع الذى أجبـر الروس على الانسحـاب ؟ وكم يستحق أن نسجله، وأن نشيد به، وأن نبرز فحواه ؟!

إنّ أُلوفاً من الصحائف في مجموع صحف العالم، وألوفا من السـاعـات في مجمـوع الإذاعة العالمية والتليفزيون العالمى، تُنفَقُ أحيانا لتسجيل حدث تافه غاية في التفاهة،

هو ضرب الرقم القياسى في سرعة الجرى !!

وما بنا أن نَبْخَسَ ذلك العدّاءَ جُهده الذى بذل، ولا أن نُصغر من شأن الرياضة واللياقة البدنية.. فقد احتفى الإسلام حفاوة ظاهرة بقوة الأبدان : «**المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»(١). ولكنه احتفى بها لتكون عُدّة للجهاد في سبيل الله. في سبيل الحق والعدل. في سبيل تحرير البشرية من عبادة الطاغوت، لا لتكون غاية في ذاتها تنفق من أجلها الجهود، وتتحدث بذكرها الركبان !

فإذا كانت هذه الحفاوة في صحافة العالم وإذاعته وتليفزيونه تُبذل من أجل ذلك الحدث التّافه، أفلا يجدر بنا أن نسجل - للتاريخ - ذلك الحدث التاريخى الضخم، وهو اضطرار «دولة عظمى» أن تنسحب من الميدان أمام شعب صغير تسلح بالإيمان ؟!

أى قوة يعطيها هذا الحدث للمؤمنين إزاء قوى الشر المبثوثة في الأرض ؟ وأى أمل يمنحه للمستضعفين ؟!

وما نقول إن الأمر سيتغير في يوم وليلة، فيكف المتجبّرون عن تجبّرهم، ويتحرر الضعفاء من خوفهم، ولكنّا نقول - يقيناً - إنه درس.. إنه عِبْرَة.. يَعتَبِرُ بها الذين يفتح

---

(١) أخرجه مسلم.

الله بصيرتهم على الحقيقة.. فيعلمون :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (١)

* * *

اعتبار آخر يجعل الجهاد الأفغانى نقطة تحول تاريخية.

لقد أفسدت الجاهلية المعاصرة تصورات الناس عن الكون والحياة والإنسان، فأفسدت بالتالى قِيَمَهُم وتصرفاتهم كذلك، حين نفت وجود الخالق سبحانه، أو اعترفت بوجوده ولكنها نفت هَيْمنته وتدبيره لأمر السماوات والأرض. ومن ثَمّ أصبح كل شىء يقاس بالكَمّ المادى، وبالقيم المادية، وبالتصورات المحصورة في محيط ماتدركه الحواس.

ولكنّ الجهاد الأفغانيّ أمرٌ مختلف..

وكل التصورات المادية، والحسابات المادية، التى لاتضع «الإيمان» في حسابها، ولاتجعله القيمة الموجبة الأولى، تعجز عن تفسير هذا الحدث التاريخى الكبير.

وكل التصورات التى تغفل شأن الخالق سبحانه، وأنه هو الذى يدبر، وهو الذى يرتب مايشاء من النتائج على مايتخذه البشر من الأسباب، وليست الأسباب هى المؤدية بذاتها، ولا البشر هم الذين ينشئون الأحداث.. كلها تعجز عن

---

(١) سورة العنكبوت [٤٣].

تفسير هذا الحدث العظيم.

إنمـا الجهـاد الأفغاني في حقيقته الواقعية، هو إرادة ربانية أجراها الله على يد فريق من البشر آمنوا بالله، وباعوا أنفسهم لله، فنصـرهم الله، وخـذل أضعاف أضعافهم في العدد والعُدّة.. ليجعلها آية وعِبرة لمن يَعتبر.

لقد وجّه الله أولى الأبصار أن يعتبروا بآية بدر الكبرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[1].

وليست العبرة فقط في وقوع تلك الآية الكبرى ـ آية بدر ـ إنما العبرة أيضا **في القاعدة** التى يسير الأمر في الكون بمـوجبها، وهى التى يشير إليها قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ إن الله هو الذى يؤيد من يشاء بنصره، وليس العدد في ذاته، ولا الأدوات..

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2].

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

---

(١) سورة آل عمران [١٣]. (٢) سورة آل عمران [١٢٦].

مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

كم يساوى الجهاد الأفغانى - بهذا الاعتبار - حين يتمّ هذا الحدث الضخم على يد فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هُدى، وربط على قلوبهم، ليُظهر - سبحانه - الحق على أيديهم، ويجعلهم برهاناً لآياته ؟!

كم ضالا تَرُدّ - بإذن الله - عن ضلالته ؟ وكم متشككاً ترد عن شَكّه ؟ وكم هاربا من الدين كالحُمُر المُسْتَنفِرة التى فرّت من قسْوَرة، تردّهُ إلى حظيرة الإيمان ؟!

وكم يساوى الحدث الذى يصحح للناس تصوراتهم، ويصحح تقديراتهم، ويصحح سلوكهم ؟! ألا يستحق من الإشادة - على الأقل - مايستحقه ذلك العدّاء الذى ضرب الرقم القياسى في سرعة الجرى.. وكل ماصنعه أنه ظل يجرى على الأرض، ولم يحلّق مرة في ملكوت الله ؟!

ومانقول إن الأمر سيتم في يوم وليلة، فيعود الناس من جاهليتهم المادية الجاحدة الكافرة إلى الإيمان بالله والإيمان بالغيب بمجرد أن يروا الجهاد الأفغانى، ويروا روسيا تسحب جنودها من الميدان.. ولكنها لاشك عبرة لمن يعتبر..

---

(١) سورة التوبة [٢٥ - ٢٦]

وسيعتبر الذين يفتح الله بصيرتهم على الحق، ويرجعون.

* * *

اعتبار ثالث يجعل الجهاد الأفغاني نقطة تحول تاريخية.. هو تأثيره على «المسلمين الروس».

لقد حاولت روسيا الشيوعية سحق المسلمين سحقا في ولاياتها الإسلامية، واتخذت لذلك من الوسائل ماسوّلت لها أحقادُها الموروثة ضد المسلمين.. وقد كانت روسيا القيصرية تضطهد المسلمين بدافع الحقد الصليبي، فلما جاءت الدعوة الشيوعية زعموا للمسلمين أنهم إن ناصروهم ضد القيصر فسيُحَسّنون أوضاعهم، ويردون إليهم حقوقهم. وبعد المساندة التي بذل فيها المسلمون مابذلوا عادت الشيوعية فاضطهدتهم بأفظع مما كانت القيصرية تفعل، وصارت تذبّحهم بالملايين، لا بالآحاد ولا بالمئات ولا بالألوف.. لمجرد كونهم مسلمين !

وعمَدَت الشيوعية فوق ذلك إلى سياسة التفتيت، فنثرت المسلمين نثرا في أرجائها الواسعة، بعد أن نَفَت من نفت منهم في ثلوج سيبريا، لكي يصبحوا أقليات مسحوقة منبوذة في وسط الكتل الروسية المُلحدة، فيذوبوا ويتلاشوْا مع الزمن، وتستريح الشيوعية من عدوها الأكبر.. الإسلام !

وعلى الرغم من ذلك كله بقي مسلمون ! مهما يَكُن عددهم قليلا فهم مسلمون ! يحفظون القرآن ويُحفّظونه سرا

لأولادهم، ويُصلّون ويصـومـون في الخفـاء، ويحتفـظون بذكريات عن أيام عزتهم، يوم كان لهم في بلادهم السلطان !

وحين بدأت الحرب ضد المجاهدين أرسلت روسيا جنودا ممن يحملون أسمـاء إسـلاميـة ـ وإن كانوا قد أصبحوا شيـوعيين ذائبين في المجتمـع الشيـوعى تحت الظروف القـاهـرة ـ على أسـاس أنهم يعـرفون اللغات الأفغانية، فيستطيعون التّفاهم مع الأفغان، وإقناعهم بالشيوعية !

وخاض أولئك الجنود المعارك الضارية ضد المجاهدين.. ورأوا ذلك الصمـود العجيب.. ورأوا الذين يقفون للصلاة والقنابل تتناثر من حولهم، فلا يتركون صلاتهم، بل لاتؤثر القنابل في خشوعهم وإخباتهم !

وحدثت مفاجآت.. مفاجآت غير سارّة للشيوعيين.

انضم فريق من المسلمين **الروس** إلى المجاهدين.. وأسلم بعض الروس من غير المسلمين !

ثم سَرَت رُوحُ التّخـاذل في الجيش الروسى، فسحبته روسيا إلى داخل البلاد قبل أن يتم انهياره النفسى، فلا يعود يصلح بعدها للقتال !

وقد كان لروسيا أكثر من هدف تستبسل في القتال من أجله، قبل أن تضطر إلى الانسحاب.

كانت تهـدف **أولا** إلى سحق «التمرد» الأفغانى ـ كما سحقت التمرد المَجَرِىّ من قبل ـ خشية أن ينجح «التمرد»

فيكون مثلا سيئا لبلاد أخرى واقعة في قبضة الشيوعية، فتتمرد هى الأخرى، وينحلّ رباط «الاتحاد» السوفيتى، لأن هذه السلسلة إذا بدأت لاتنتهى حتى يحدث الدمار !

وكانت تخشى **ثانيا** أن تنتقل عدوى «الصمود» من المجاهدين الأفغان إلى المسلمين الروس، فيرفعوا رؤوسهم بعد أن أُخمدت الشيوعية أنفاسهم على مدى نصف قرن أو أكثر. وعندئذ تحدث مشكلة لاقِبَلَ لروسيا بعلاجها، فالمسلمون في الاتحاد السوفييتى يتزايد عددهم باستمرار رغم كل الضغوط التى تهدف إلى إفنائهم أو إنقاص عددهم، ويتوقع الخبراء أن يصل عددهم في القرن القادم إلى نصف تعداد الاتحاد السوفييتى ! فكيف يكون الحال إذا رجعوا إلى إسلامهم بتأثير الصمود الأفغانى، وعجز الشيوعية ـ لأول مرة في تاريخها ـ عن سحق ذلك الصمود !!

لذلك ضغطت روسيا بكل قوتها، واستخدمت كل الأساليب الوحشيّة لتحقيق أهدافها. ولكن الله أراد غير ماأرادت روسيا، ونَفَذَ قَدَرُ الله. فلا هى استطاعت أن تسحق «التمرد» ـ كما أطلقت عليه ـ ولا هى استطاعت أن تتجنب النتائج التى ترتبت على احتكاك الروس بالمجاهدين. وسمعنا ـ لأول مرة منذ الثورة الشيوعية ـ عن «مظاهرات» في الولايات الإسلامية يقوم بها المسلمون للمطالبة ببعض الحقوق !

ماذا يحدث في روسيا غدا من جراء صحوة المسلمين ؟ الله وحده هو الذى يعلم.. ولكن الأمر الذى لاشك فيه، أن الصمود الأفغانى كان نقطة تحول تاريخية بالنسبة للمسلمين الروس !..

* * *

وأخيراً فإن في الصمود الأفغانى درسا للحركات الإسلامية في العالم الإسلامى كله.

ينبغى للحركات الإسلامية أن تدرك أنها لن تصل إلى شىء من أهدافها - وهدفها هو تطبيق الإسلام في دنيا الواقع، وتحكيم الشريعة الربانية - طالما هى جماعات معزولة عن جسم الأمة، فضلا عن كونها جماعات منفصلة بعضها عن بعض، متنابزة بعضها مع بعض.

لابد أن تكون **الأمة** هى التى تجاهد، لا جماعات منعزلة، ولا جماعات متفرقة.

وبدهى أن الحركات الإسلامية تسعى إلى إيقاظ الأمة وتوجيهها الوجهة الإسلامية الصحيحة. ولكن الأمة - حتى الآن - ماتزال في مجموعها بعيدة عن معرفة الطريق، وماتزال الجماعات الإسلامية تقف وحدها في الميدان.

إن هناك وجدانا دينيا عند الجماهير لاشك فيه، وحين يستثار هذا الوجدان فإنه يستيقظ ويثور.

وهناك رغبة - اليوم - عند كثير من الناس أن يروا شريعة

الله مطبقة في عالم الواقع.

ولكن نخدع أنفسنا إن قلنا إن الأمة **قد جندت نفسها** لقضية لاإله إلا الله، وإنها ـ بحالتها الراهنة ـ مستعدة أن تصبر على الجوع والعطش والتشريد والتعذيب والقتل من أجل قضية لا إله إلا الله !

هناك أسباب كثيرة لذلك الواقع.. ولكن السبب الرئيسى ـ في اعتقادنا ـ أن الجماهير تظن أن أوضاعها إسلامية، ولكن ينقصها فقط «تكملة» ضرورية، هى تحكيم شريعة الله. ولاتدرك هذه الجماهير أن الأوضاع **لاتكون إسلامية ـ** بصرف النظر عن عقائد الأفراد ـ إذا كانت شرائع الجاهلية هى المُحكَّمة بدلا من شريعة الله.. ومن ثَمّ فإن هذه الجماهير لاتتحرك الحركة الجادة التى تؤدى إلى تطبيق شريعة الله، لأن الحركة الجادة معناها الجهاد مع الأعداء.. ولاتعتقد الجماهير أن هذا واجب عليها من أجل «التكملة» مهما كانت ضرورية، مادامت ترى أن أوضاعها إسلامية على أى حال.

وكَوْن هذا هو السبب الرئيسى، لايمنع أن تكون هناك أسباب أخرى ـ كثيرة ـ تؤدى في النهاية إلى النتيجة ذاتها، وتعمل على ترسيخها.

ولكن حين تُجنّد الأمة نفسها لقضية لا إله إلا الله ـ على الطريقة الأفغانية ـ فسوف يتحقق الهدف بإذن الله.

ومرة ومرة ومرة نقول: إننا لانعنى أن يتحول الأفراد كلهم إلى مجاهدين. فهذا مستحيل. ولم يحدث حتى فى مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كان في ذلك المجتمع من قال الله فيهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟! ﴾(١).

ومن قال فيهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ! ﴾(٢).

ومن قال فيهم: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء [٧٧].

(٢) سورة التوبة [٣٨].

(٣) سورة التوبة [٨٦].

ومن قال فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ! ﴾[1].

ولكن القاعدة التى أنشأتها الدعوة الإسلامية على يدى الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من الصلابة والقوة ورسوخ الإيمان بحيث حملت هؤلاء كلهم، وسارت بهم إلى الأهداف التى قدرها الله.

والمطلوب أن يتحقق هذا مرة أخرى. وتحس الأمة أنها **مجندة لقضية لا إله إلا الله**، ثم يستجيب منها بالفعل من قدر الله أن يستجيب، ويُبَطِّىء ويثّاقل ويفرّ من قعد به الخَوَر أو قعد به النفاق.

والطريق أمام الحركات الإسلامية ـ لكى تصل بالأمة إلى هذا الوضع ـ قد يكون طويلا وشاقا ومجهدا، كما أنه مملوء بالدماء والدموع، والأشواك والآلام.. ولكنه هو الطريق !

هكذا قَدَّرَ الله أن يُبْتَلَى المؤمنون، فيُضطهدون ويُشرَّدون ويُعذَّبون ويُقتَّلون.. وحين يثبتون على الابتلاء.. وحين تصفو نفوسهم ويتجردون لله، يُمَكِّن الله لهم في الأرض بعد

---

(١) سورة النساء [٧٢ ـ ٧٣].

أن يعلم سبحانه - وهو العليم - أنهم أصبحوا «شهداء» حقا.. يشهدون بصدقٍ أنه لا إله إلا الله، ويشهدون أن هذا الدين هو الحق الذى ينبغى أن يَحْكُمَ الأرض وغيره هو الباطل الذى ينبغى أن يزول.

﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[1].

﴿ .. وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2]. ﴿ .. فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت [١ - ٣].

(٢) سورة آل عمران [١٤٠ - ١٤٢].

(٣) سورة آل عمران [١٩٥].

طريق طويل وشاق ومُجْهد.. يبدأ بتربية القاعدة الصلبة المؤمنة المجاهدة، ثم يتسعَ تدريجيا حتى تصبح الأمة كلها مجندة لقضية لا إله إلا الله، يستجيب منها من يستجيب، ويتقاعس ويتخاذل ويفرّ مَنْ كُتبت عليه الشّقوة في الدنيا والآخرة.

وقد مَنّ الله على الأمة الأفغانية، فجعل العدوّ الأحمر الكافر يرتكب الحماقة الكبرى، ويدخل المعركة بنفسه فتجمعت الأمة لقضية لا إله إلا الله، وكان منها ذلك الصمود العجيب.. بفضل من الله.

وماندرى ماذا يحدث في الأرض الإسلامية غدا.. فقد تُكَرَّر الحماقة من الأعداء بدافع الغيظ من الحركات الإسلامية التى لاتَبِيدُ مهما سُلِّط عليها من أدوات القهر، بل تتسع قاعدتها مع كل مذبحة يقوم بها الطغاة !

وقد تحدث أسباب أخرى يقدرها الله، لتجتمع الأمة على قضية لا إله إلا الله.

وسيبقى الجهاد الأفغانى في جميع الأحوال هو نموذج المستقبل.. سواء من حيث تجمع الأمة للقضية، أو من حيث درجة الصمود أمام قوى الكفر والطغيان.

وحين تتجمع الأمة الإسلامية ذلك التجمع، وحين تصمد ذلك الصمود، فلن تغلبها قوة في الأرض، لأن انتصارها حينئذ يتم بسُنّة ربّانية جارية، وسُنّة الله لاتتخلف حين توجد

شروطها التى بيّنها الله :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[(١)].

والذين يَفغَرون أفواههم عجبا ويقولون : أهذا معقول ؟! أيمكن أن تصمد الأمة - وهى عزلاء - للقوى الجهنّمية التى يملكها الأعداء ؟!

فهؤلاء نقول لهم: إن الذى لاتصدقونه أصبح واقعا بالفعل..

والجهاد الأفغانى، والانتفاضة الإسلامية في فلسطين، خطوات على الطريق.

ومهما يكن من مشقة الطريق ومن طوله، فهو هو الطريق الواصل، الذى يؤدى إلى التمكين في الدنيا ورضوان الله في الآخرة :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔا ﴾[(٢)].

---

(١) سورة القتال [٧].

(٢) سورة النور [٥٥].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١)

* * *

والمستقبل للإسلام..

لا في الأرض الإسلامية وحدها، ولكن على نطاق واسع من الأرض.

فأما في الأرض الإسلامية فهذه الصحوة المباركة هى بشير الخير للمستقبل.. ونقطة الخير فيها هى عودتها إلى الإسلام في منابعه الصافية، من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم. كما أنه مما يبشّر بالخير فيها كذلك صمودُها للابتلاء الواقع عليها، واتساع رُقعتها بقدر مايَبذُل الطغاة في القضاء عليها !

وأما في بقية الأرض فإن هذه الحضارة المادية الكافرة لايمكن أن تستمر في تَمكُّنها وهى تحمل هذا القدر الهائل

---

(١) سورة التوبة [١١١].

من الانحراف، سواء في تصوّرها عن الكون والحياة والإنسان، أو تمرّدها على الخالق سبحانه، ورفض كل مايجيء من عند الله. وإذا كانت هذه الحضارة تحوى إيجابيات تُبطىء انهيارها، حسب السُّنن الربانية :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١).

فإن ذلك لايمنع انهيارها في النهاية حسب السنن الربانية كذلك:

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢).

وحين تنهار الحضارة المادية الكافرة، فالبديل الوحيد القائم في الأرض هو الإسلام. فليس الذى في طريقه للانهيار «دولة» لكى تحل محلها دولة أخرى، وإنما هو «منهج حياة» مُعيّن، يرفض الانصياع لحكم الله، ويطغىٰ بما لديه من العلم، كما قال قارون من قبل حين قال له قومه :

---

(١) سورة هود [١٥].

(٢) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥].

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

.. قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[2].

وحين ينهار هذا المنهج، لعدم قدرته على الامتداد، فلابد أن يَرِثه منهج مختلف.. منهج يقبل الانصياع لحكم الله، ولايطغىٰ بما عنده من العلم.. وهذا هو الإسلام !

والإسلام هو المؤهل ـ دائما ـ لإصلاح ماتفسده الجاهلية من حياة الناس، بربانيته، وشموله، وتوازنه، ومناسبته للفطرة :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

ولكن الإسلام لن يصل للناس صافيا ـ ليعرفوه على حقيقته ـ حتى يَرَوْه مطبّقاً في واقع الأرض، في أمة تؤمن به، وتمارسه في واقع حياتها، لتعطيه ـ بالقدوة الصالحة ـ

---

(١) سورة القصص [٧٦ ـ ٧٧].

(٢) سورة القصص [٧٨].

(٣) سورة الروم [٣٠].

لمن يتقبله من عباد الله.

ولن يتم هذا بغير جهاد، لأن الجاهلية لن تسمح للأمة المسلمة أن تمارس إسلامها، حتى تخوض جهادا شاقا معها، يتقرر بعده البقاء للأصلح، لا بالمعنى الداروينى الفاسد، ولكن بالمعنى الربانى المقرر في كتاب الله :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(١).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الرعد [١٧].

(٢) سورة الأنبياء [١٠٥].

كتب للمؤلف

* الإنسان بين المادية والإسلام.
* شبهات حول الإسلام.
* في النفس والمجتمع.
* قبسات من الرسول.
* معركة التقاليد.
* هل نحن مسلمون ؟
* منهج التربية الإسلامية الجزء الأول.
* منهج التربية الإسلامية الجزء الثانى.
* منهج الفن الإسلامى.
* دراسات في النفس الإنسانية.
* التطور والثبات في حياة البشرية.
* جاهلية القرن العشرين.
* دراسات قرآنية.
* مذاهب فكرية معاصرة.
* واقعنا المعاصر.
* مفاهيم ينبغى أن تصحح.
* حول التفسير الإسلامى للتاريخ.

الفهرس



الناشــر

مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر

مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر

ص.ب: ٨٠٧ جـدة : ٢١٤١٢

المملكة العربية السعودية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٩٠/٤٠٠٧

مؤسسة
المدينة للصحافة
ص.ب : ٨٠٧ جده ٢١٤٢١ ت : ٦٧١٢١٠٠

التوزيع بالقاهرة

بدران للطباعة والنشر والتوزيع
٥ شارع الشوارى
ت : ٦٥٦٥٠٢

الثمن ٢,٥ جنيه